www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

رواية أيامي

للكاتب السوداني

هشام آدم

الفصل الأول: من أرتكاتا إلى كوينكا

جدري وملامح شاحبة

كنا على وشك الرحيل عندما قبّلتني سوليداد فيدل جدتي لأبي وهي تضع في يدي بطريقة سريّة عملة ورقية بائسة. ورغم أنني لم أكن وقتها أعرف قيمتها على وجه التحديد، كما أنني لم أتوقع منها أن تفعل ذلك إلاّ أنني غضبت لأنها لم تجد غير تلك العملة المهلهلة لتعبّر بها عن مدى حبها لي،

في الفترات القصيرة والمتباعدة التي كنت أفيق فيها من الإعياء كنت لا أرى عبر نافذة القطار غير أرضٍ صخرية مجدبة،متلائمة تماماً مع الحمى التي كانت تتناوشني طوال الرحلة، الأمر الذي كان يوحي لي دائماً بأنني قد أموت من العطش. وما كان يزعجني أكثر من تلك الحمى الجدرية هو صوت صفائح عربات القطار التي توحي لك بأنها سوف تنفصل عن بعضها في أية لحظة، وأصوات عجلاتها الحديدية التي كانت تشبه نبضات قلب مارد عملاق. كانت هذه الأصوات مثيرة للاكتئاب والخمول لا سيما مع الجو الحزائني الذي كان يكتنف القمرة. الشيء الوحيد الذي علق بذهني بقوة من تلك الرحلة

تشاركنا ذات القمرة سيدة فضولية كثيرة الكلام ترتدي فستاناً أسوداً مرقّطاً بدوائر بيضاء صغيرة، ونظارات تبدو أنها لحفظ البصر، وقفازات سوداء متوافقة مع لون الفستان. اكتشفت فيما بعد أنها زوجة إحدى أصدقاء والدي. لم تكف تلك السيدة - شارلوت كوربن - عن إسداء النصائح لأمي عن الطرق الشعبية المثلى لتطبيبي نظراً لخبرتها الطويلة في هذا المرض الذي أصاب

كانت هي المرّة الأولى التي اكتشف فيها ميل أهلي من القبائل النوركية للعلاجات الشعبية وتصديقها أكثر من العلاجات الطبية الحديثة. كانت نظرتهم للطب وللتكنولوجيا عموماً أقل احتراماً، لذا فإن أقرب مشفى كان على بعد مسيرة يوم كامل من كوينكا. من خلال النافذة كنت استمتع بمشاهدة الباعة المتجولين في المحطات التي يقف فيها القطار لمدة لا تتجاوز الربع ساعة على الأكثر. كان منظر المحطات بائساً لدرجة أنها توحي لك بالنعاس، ولولا مرور بعض الوجوه النمطية لخيّل إليك أنها مهجورة. كما أنها لم تكن تحتوي على لافتات تحمل أسماء تلك المحطات، عرفت ذلك من أسئلة السيدة كوربن التي كانت تتدلى من النافذة لتسأل المارة "أية محطة هذه؟" وما زلت أذكر تلك الفتاة النحيلة التي كانت تبيع في سطل تقليدي قديم عصائر بلون أحمر معلّبة في أكياس شفافة، عندما أشرتُ لأمي لشرائها، فتقدمت السيدة الفضولية لتنصحها بألا تفعل لما قد تسببه المشروبات الباردة عليّ وعلى حالتي الصحية، ورغم اقتناع أمي بكلامها إلاّ أنني كنتُ قد وصلتُ في كراهيتي لهذه السيدة إلى مراحل متقدمة جداً يصعب معها أن أتقبل منها نصيحة، أو أن أهزم أمامها وأمام نصائحها الفضولية، واعتبرتُ أن مسألة شراء المشروب المثلّج مسألة عائلية خاصة، ولم يكن أمامي سوى أن ألجأ إلى البكاء معتمداً على كوني مريضاً، ودائماً ما تنجح هذه الخطّة، فالمرضى لهم معاملة خاصة، وهم أكثر دلالاً من الأصحاء. ولكنني لم أكن لأعرف طعم ذلك العصير بسبب مرارة لساني. لا يهم فقد أحسست بنشوة الانتصار على أية حال.

لا أدري لماذا كان يخيّل إليّ أن السيدة كوربن كانت ترمقني بنظرات تبادلني فيه الكراهية من تحت نظاراتها الخفيفة. ظلت الحرب غير المعلنة بيني وبينها مستمرة حتى وصل القطار في ظهيرة يوم قائض إلى "كاتوشيا" حيث تجمع عشرات الرجال والنساء الذين قدموا للاستقبال. وكان ذلك آخر عهدي بالدفء الأمومي. كنت أشعر بحزنٍ ووحشة غير منطقيين وأنا أراقب تلك المشاهد الميلودرامية لأُسر حكم عليها الحرب بالانفصال والتشريد.

كانت لتلك الكلمات المحلية الحزينة، التي كانت أمي والنساء يتبادلنها وقعها المؤثر في نفسي رغم أني لم أكن أجيد اللهجة المحلية بشكل احترافي، حتى أنني كنت أكتفي بالإيماء ولغة الإشارة في كثير من الأحيان لدرجةٍ ظنّ فيها الكثيرون أنني أبكم. أعجبتني الطريقة التي يتحوّل بها الناس من حالة البكاء إلى الضحك ثم إلى القهقهة بدون تدرّجات تمهيدية. ولكنني عرفت فيما بعد أن ذلك يسهل التدرّب عليه. كان عمري حينها لا يتجاوز الثمان سنوات، وكانت ملامح الثراء التقليدية بادية عليّ كما على أمي التي لم تكن تجرؤ على خلع أسوارها الذهبية التي ينوء بها معصمها كأنها حارسة لمعبد بوذي، وكأن ذلك هو البرهان الوحيد الذي يثبت أنها قادمة من أرتكاتا بلد الألماس. ورغم أنني لم أكن أعرف سبباً واضحاً لضرورة أن تبرهن على ذلك، إلاّ أنني بالمزيد من الاحتكاك بالقبائل النوركية عرفت أنهم يهتمون بهذه التفاصيل إلى درجة بعيدة.

كان اللون الأصفر الشاحب هو اللون الأساسي في كل ما رأيته وما أتذكره من تلك المدينة التي تنتشر منازلها على مسافات متباعدة من بعضها تاركة مساحات واسعة كميادين يستغلها الأهالي للمناسبات. كنت وقتها قد

كانت الرحلة أشبه برحلات الهجرة غير الشرعية التي كان يقوم بها البعض سراً إلى "لاميمبون" عبر الحدود الغربية، مستخدمين في ذلك وسائل النقل المختلفة. في إحدى جلساتهم المسائية على ضوء القمر، حضرت سيدة ما تزال تحافظ على ملامح أرستقراطية تركها اغتراب قديم لم ينته إلا منذ سنوات قليلة خلت، بينما كانت تمسك في يدها لفّة قماشية وضعت داخله بعض الهدايا التقليدية. قدمته لأمي التي حملتها بأريحيتها ووعدت بتسليم الهدية لصاحبها في "كوينكا".

تحدّث الجالسون عن قضايا لم تكن ذات أهمية لدي، كانت أغلبها تدور حول موتى فارقوا الحياة فترة غياب أمي عن كاتوشيا ورحيلها مع زوجها إلى

غرقت قبعات الرجال ومناديل النسوة المودعات مع عليّات البيوت وهي تغيب عن الأنظار وتتلاشـى تحـت خـيط شـفقي أحمـر، بينمـا اتجهنـا شـمالاً إلـى

كنت أتعجّب لمقدرة أمي الغريبة على النوم مع حركة العربة المزعجة التي تسببها وعورة الطريق. كان يخيّل إليّ في كثيرٍ من الأحيان أننا في هودج على ظهر جمل عربي، يزيد من هذا الشعور قماشة حمراء منتهية بضفائر مخملية مطرّزة تتدلى من سقف كابينة القيادة يستخدمها أمادوا كزينة لعربته. واستيقظت أمي مذعورة لترسم بيديها علامة الصليب في ميكانيكية تعبّدية خاشعة عندما صاح أمادو فجأةً " لورد"(1) كنت لا أعرف سر الخشوع الذي هبط فجأة على الاثنين وهما يطلان بنظراتهما على مكانٍ ما في الخارج. أخرجت رأسي من النافذة لأرى، وأنا ابتسم للعدوى الفضولية التي يبدو أنها انتقلت إليّ من السيدة كوربن. لم أجد سوى صرح شبه هرمي عليه علامة الصليب، كان يبدو لي كدير لم يوفق بانيها في اختيار المكان المناسب. التفت إلى أمي لأجدها ما تزال في خشوعها الكاثوليكي فسألتها " ما هذا المكان؟ " فأشارت لي بيدها بأن أصمت. ابتسم أمادو وجذبني من ذراعي إليه، وجعلني إلى جواره:

- سوف أحكي لك يا بني .. يقال أن مراهقة كاثوليكية تدعى بيرنيدت سوبيروس أتت إلى غار ماسيبيل(2)- الذي تراه أمامك هناك – معتزلةً

- وهل ظهرت لها السيدة العذراء حقاً؟
- أظن ذلك؟

ورغم أنني كنت أعشق القصص من ذلك النوع الذي يتناول سيرة الغابرين والأسلاف، إلاّ أن رواية أمادو هذه كانت محبطة وتنقصها الكثير من التفاصيل، فلجأت إلى خيالي الطفولي لإضافة المزيد من المؤثرات لقصة أمادو المبتورة.

رغم خصوصية الجلوس في كابينة القيادة الأمامية، ودلالاتها البرجوازية؛ إلاّ أنني لم أكن مرتاحاً لذلك، فلم يكن بوسعي أن أتمدد أو أن أتحرّك أية حركة دون أن ترمقني أمي بنظراتها المتشددة، إذ كانت حريصة كل الحرص على أن نبدو في شكل مهذب أمام الآخرين لا سيما الكبار، وكنت أجاهد كثيراً لأحقق لها هذه الرغبة، غير أنها لم تكن تلاحظ إلاّ الهفوات النادرة.

في مكان ما توقف أمادو وأطفأ محرك سيارته، وأعلن استراحة لنصف ساعة. ترجلنا وبدأ البعض بمطّ جسمه المنكمش بفعل الزحام، بينما جثا البعض على ركبهم غير بعيد للتبوّل. كان البرد قارصاً لدرجة أن الرجال كانوا ينفثون من أفواههم أبخرة كأبخرة التنانين الأسطورية، بينما لفّت النساء وجوههن بمحارم قطنية. كانت تعجبني فكرة خروج الأبخرة من الأفواه فولّدت لدي رغبة انحرافية، فكنت أضم سبابتي والوسطى كما يفعل المدخنون المحترفون وأتظاهر بالتدخين. أشد ما أعجبني أنني لم أكن أخاف من أمي وأنا أفعل هذه الحركات. كانت جوانيتا تتوسل لأمي بأن تأخذها معها إلى

من جهةٍ ما سمعنا صوت فتاة عشرينية وهي تكيل لأحدهم الشتائم، عرفنا فيما بعد أنه حاول التحرّش بها بينما كانت تتبول. خيّم - عندها - سكون متوتر على المكان فيما كان البعض يتندّرون بهذه الحادثة ويتغامزون فيما بينهم. أحسست بشفقة ساذجة تجاه الفتاة عندما عاقبتها أمها بصفعة قوية وحكمت عليها بملازمتها طوال الرحلة. لم أعرف سر هذه العقوبة التي أوقعتها الأم على ابنتها الضحية، في حين اكتفى الجميع بتقطيب جباههم للجاني، واستيائهم الذي زال بعد دقائق معدودة. هذه الحادثة جعلت بقية النساء يطبّقن ذات العقوبة على بناتهن. شعرت بأنهن كقطعان ضأنٍ لا حيلة لها غير مصادقة الذئاب التي تمارس دوراً مزدوجاً: حمايتها والتهامها في آنٍ معاً !!

الفصل الثاني:

كوينكا .. الحرية الحلم

- مدينة الأرواح الشريرة والأيول -

بمزاجية متعالية نهض أمادو وهو ينفض عن بنطاله ما تعلّق به من تراب وهو يقول بطريقة آمرة "انقضت النصف ساعة .. فليستعد الجميع" ربما لم تنقض النصف ساعة تماماً، فقد كان حساب الزمن بالنسبة إليه مسألة تقديرية. أخذ الجميع مواضعهم مرّة أخرى، ثم انطلقنا بذات الهدوء القاتل والبرودة التي كانت تتسلل داخل ملابسنا الداخلية دون خجل. ظللت مستيقظاً طوال الطريق،ولم استطع النوم، منعني من ذلك أمادو الذي كان يغني بصوته القبيح أغنية شعبية لم تطربني كثيراً، واهتزاز العربة الذي لم يكف حتى وصلنا إلى كوينكا فجر اليوم التالي.

أول ما رأيته كنّ نساء يحملن دلاء الماء الصفيحية فوق رؤوسهن وهن يراقبن مرورنا من على البعد. وبطريقة احتفالية بدأ أمادو يطلق أبواقه الموسيقية في إشارة إلى وصولنا. استيقظ الجميع على صوت الأبواق، وأخذوا ينظرون

ما إن سـمعوا صوت الأبواق حتى بدأ الناس يخرجون مـن البيـوت. وبطريقـة لا تخلو من تعالي أيضاً ظلّ أمادوا يدور بعربته فـي شـكل دائـرة كبيـرة، قبـل أن يتوقف تماماً في سـاحةٍ رملية.

ذات المشـاهد الاحتفالية في كاتوشيا تكررت مرّة أخرى في كوينكا. كنت قـد بدأت أشعر بحنـين منقطـع النظيـر لأرتكاتـا، وتمنيـت أن يكـون مـا أراه حـولي مجرد حلم عابر. تفاصـيل الاسـتقبال والكلمـات المتكـررة والقـبلات والنظـرات الفضولية والتعليقات السـاذجة كانت مرهقة إلـى حـد الـضجر. أخـذت جوانيتـا تبكي عندما أهملتهـا أمـي وتركتهـا محاصـرة بـين فتيـات ذوات منظـر بـشع، بينما كنت محاصراً بفتيان لا يرتـدون غيـر شـورتات وفنايـل داخليـة متـسخة. عرفت فيما بعد أن أكبرهم سـناً كان خالي سـانتياغو إميليـو الـذي أراه للمـرة الأولى. لم أشعر تجاهه بغير ما شعرت به تجاه البقية.

كان الواجب الأكثر قداسـة هو إلقاء التحية علـى كبـار الـسـن لا سـيما أورفـل بودن الذي كنت أخشـى مواجهته حاملاً جرم والدي في حروف اسـمي، غيـر أنه كان لطيفاً علـى عكـس مـا توقعـت. كـان قاصـاً مغمـوراً، أو معروفـاً علـى نطاق أرتكاتا فقط. وسـمعت أنه ألّف رواية "ما وراء النهر" التي لم أكـن قرأتهـا بعد آنذاك. بالإضـافة إلـى كونـه قسـيـساً فـي كنيـسـة الأب خوليـو. فوجئـت عندما عرفت أنه متزوج من امرأة أخرى تـدعى يوامـاريز روجيليـو، أصـغر سـنـاً وأجمل قلـيلاً مـن سـوليداد فيـدل. كانـت تلـك أول مواجهـة لـي مـع جـذوري

كانت توليدو مستعمرة للنازحين من جحيم الحرب الأهلية التي اندلعت عـام 1936م واستمرت لثلاث سنوات، عانت فيها قبائل النورك أشد حـالات الجـوع إذ كانوا يأكلون ثمرة البرتقـال للغـداء بينمـا يتعـشوّن بقـشره لـيلاً. فيمـا بعـد أصبحت توليدو ذائعة الصيت، كمـا أنهـا كانـت مقـراً لأبنـاء وبنـات أورفـل بـودن المتزوجين منهم وغير المتزوجين، فلم يكن أحد ليطيق مزاجيته وعصبيته.

بعـض أفـراد الأسـرة الأورفليـة المنـادين بالوحـدة الأسـرية وجهـوا انتقـاداتهم لسوليداد فيدل التي قسمت الأسرة - برحيلها - إلى شقين بينما أوعـزوا مـا فعلته إلى أنها محض غيـرة نـسائية غيـر واعيـة. وكـان أورفـل القـسيس قـد أنجب مـن سـوليداد وحـدها سـبعة أبنـاء. كـان أبـي أكبـرهم ثـم تيـرا أورفـل المتزوجة من ابـن عمهـا فـاردون رسـل والتـي تعـيش فـي توليـدو منـذ أيـام زواجها الأولى. ثم كيوريدا أورفل العشوائية التـي تزوجـت رجـلاً قـصير القامـة من خارج نطـاق العائلـة، وأقامـت معـه فـي توليـدو أيـضاً حتـى قبـل سـنوات الحرب الثلاث.

كانت العمة كيوريـدا الوحيـدة التـي مارسـت التوتميـة(3) فـي عائلـة أورفـل. واعتبرتهـا العائلـة أول مارقـة علـى النظـام الأورفلـي الـصارم. ثـم دوليـسينيا أورفل الوحيدة التي بقيـت فـي كوينكـا بجانـب والـدها، لـيس محبـة لـه، بـل طاعة لزوجها الذي كان يعمل في النقل النهـري هنـاك. ثـم سـلفادور أورفـل

هؤلاء كانوا مجرد أسماء أقرأها على شجرة العائلة، ولم أكن أعرف أحداً منهم قبل زيارتي التاريخية لكوينكا فيما عدا العم سلفادور الذي كان يعيش معنا في أرتكاتا حتى وفاة سانتوس أورفل.

كانت مهمتي الصعبة تكمن في التعرف على أفراد العائلة، بل وأن استشعر تجاههم بالعاطفة الأسرية التي لم يكن لها وجود يذكر. كان الفتيان الذين ما زالوا محيطين بي يرمقونني بنظرات لم أستطع تفسيرها على نحو منطقي، وكأنني كائن فضائي ذو ملامح بشرية. ولم يبعدهم عني غير صوت الجد أورفل بودن وهو يتقدم إليّ بعرجة خفيفة سببها له داء النقرس، متأملاً في تفاصيل وجهي الذي يراه للمرة الأولى. وبميكانيكية أبوية قبّلني قبلة واحدة وهو يتساءل:

* أهذا هو كاسبر؟

ثم تقدمت يواماريز روجيليو التي بدت لي أطيب بكثير من سوليداد، فلم تكن عيناها تحملان نظرات المكر التي كانت تحملها عينا سوليداد. لم أعرف

دخلت منزل العائلة الكبير، وأنا أحس أنني أعبر مـن خـلال بوابـة زمنيـة إلـى عالم قديم، كرّس ذلك الشعور الغبار المتواجد بكثرة علـى كـل شـيء. كنـت أبحث عن أمي بين الجموع ومن عيني تتقافز نظرات وجلـة ومترقبـة، عنـدما فاجـأني أحـدهم بجملـة ناصـحة اعتبرتهـا أمـراً "اذهـب والعـب مـع الأطفـال بالخارج" كان الصبية يجمعون بعض النقود لدخول المسرح المتنقل الذي يقام كـل صـبيحة عيـد الفـصح. فوقفـت متفرجـاً دون أن أبـدي أيـة رغبـة فـي المشاركة. تقدّم إليّ سانتياغو إميليو وخاطبني بنبرة أكثر جدية "هـل تملـك نقوداً" عندها تذكرت تلك العملة المهلهلة التي خبأتها جـدتي سـوليداد فـي جيبي بسرية، شعرت بالخجل من الإنكار ومن الاعتراف في آنٍ واحد. غير أن الاعتراف بحمل عملة بائسة كان أخف وطـأة مـن الإنكـار الـذي يعنـي فلـس الثري، وكان ذلك طعنة لكبريائي الأرسـتقراطي المفتـرض، فأخرجـت العملـة الورقية على مضض وناولتها إياه. فاكتـشفت علـى الفـور أن مـا كنـت أحملـه في جيبي بإهمال ما كـان إلا عملـة بالغـة القيمـة لدرجـة أن الجميـع أعـادوا نقـودهم إلـى جيـوبهم. كانـت العملـة التـي أحملهـا كافيـة لـدخولنا جميعـاً للمسرح المتنقل ولشراء مرطبات باردة أيضاً. عندها أحسـست بـالفخر تجـاه سوليداد، وعندها فقط عرفت مقدار محبتها الحقيقية لي.

أطفال كوينكا يتمتعون ببراعة حرفية عالية، إذ يصنعون عربات صغيرة من صفائح الزيت الفارغة، بينما يبحثون في مكب النفايات عن أحذية قديمة يصنعون منها الإطارات. ثم يضعون عصا طويلة منتهية بحلقة دائرية كبيرة مثبتة على العربة تتحكم بتوجيهها. كانت تروق لي كثيراً تلك العربات التي يصنعونها بأنفسهم، وقد بدا ذلك عليّ لدرجة أنّ أحدهم أهدى لي واحدة منها، كانت هي البداية الحقيقية لكسب علاقات ذات طابع حميمي مع البعض.

وقت الظهيرة بينما ينام البالغون، كان يتجمع الصبية في ساحة قريبة وبيد كل واحدٍ منهم عصا عربته، ثم ينطلقون إلى ضفة نهر كويربو . كان منظر النهر بمياهه الصافية مغرياً إلى حد يجعل الصبية يقررون في كل مرّة السباحة بعيداً عن رقابة الكبار الذي كانوا يحظرون السباحة على الأطفال. ولأنني لم أكن أجيد السباحة فقد كنت أكتفي باللعب بالماء في المنطقة الضحلة من النهر قرب الضفة التي تنتشر عليها حصوات كبيرة ملساء وكأنها بيوض طائر خرافي. كنت وما أزال أخاف من السباحة في الماء. يخيّل إليّ أنني كقطعة الإسفنج، ولم أتعلم بعد تقنية الطفو أو الإبصار تحت الماء. حتى أنه ما تزال تتملكني مخاوف غير مبررة من المخلوقات المائية.

حكى لي بعضهم قصصاً - كان يتناقلها الكبار ليخيفوا بها الصغار لمنعهم من السباحة في النهر - عن تماسيح أهلكت آلاف الرجال والنساء من أهل القرية، وتسببت في انقلاب العديد من القوارب التي كان يستخدمها البعض لعبور النهر إلى الضفة الأخرى لجلب عشبة "السارجيا" الطبية لمداواة الرمد. ورغم أنني لم أتقدم غير عشر خطوات داخل المياه، إلا أنني كنت أشعر بأن إحدى هذه التماسيح سوف يبتلعني أنا تحديداً تاركاً كل هؤلاء

في المساء، حين يحل الظلام، كنا نقضي الوقت في ساحة رملية واسعة أمام منزل الجد مانويل إميليو (جدي لأمي) المستقر في أرتكاتا. يعيش في هذا المنزل خالاتي: يوماريس وإلدورا إميليو إضافة إلى جدتي لأمي ماريابيلا تانكريدو. لا أذكر أن لي مع إحداهن ذكريات حميمة، وهكذا كان الحال مع أقربائي من جهة أمي. كان الخال سانتياغو إميليو يشرح لنا قواعد لعبة "عيون النمر" إذ يأخذ عظمة حيوانية قديمة ويرمي بها بشكل عشوائي بينما ندير ظهورنا إلى الناحية الشمالية، ثم نبدأ البحث عن العظمة الضائعة معتمدين على ضوء القمر فقط.

كوينكا هذه المدينة الجبلية المسكونة بالأرواح الشريرة كما تروي ماريابيلا تانكريدو، لم تكن تبدو مخيفة إطلاقاً إذا استثنينا الأصوات الغريبة التي تسمع ليلاً من وادي لاس توركاس. وفي حين تتفق روايات نساء كوينكا على أنها أصوات الأرواح الشرير المحبوسة في مكانٍ ما من الوادي، فإن قلّة من الناس توعز هذه الأصوات إلى مرور الرياح على الوادي الذي على شكل مخروط مقلوب. تقول ماريابيلا أن أرواح شهداء الحرب الأهلية المدفونة في "وادي الشهداء" القريب من الأسكوريال تنتقل ليلاً عبر وادي الريسكو دي

ما زلت أذكر ملامح العم سانتوس الذي لم أشهد أيام شقاوته التي كان والدي يتندر بها دائماً. كانت ملامحه توحي بدفء محبب كأنه شخص تعرفه منذ زمن بعيد. يومها عندما ذهبت أمي مع العمة كيوريدا أورفل إلى عزاء أسري تركتني ومورس لونيل في عهدته. وبينما كان منهمكاً في عزف مقطوعة موسيقية شعبية على جهاز البيانو الضخم الذي يحتفظ به في غرفته، وسوس لي مورس لونيل أن نقتفي أثر أمهاتنا، ليس لشيء سوى كسر الأوامر وخلق مغامرة من نوعٍ ما. كان مورس لونيل القادم مع والدته – العمة كيوريدا أورفل - من توليدو قد سبق له زيارة كوينكا من قبل، الأمر الذي جعلني مطمئناً إلى أنه يعرف المنطقة بشكل جيد. في طريقنا إلى أبيلا مررنا بحرش أوسيكبو الذي يعتبر محمية الغزلان الأكثر شهرة على الإطلاق في المنطقة. وبعد مسيرة نصف ساعة على الأقدام وصلنا إلى مقبرة في أطراف أبيلا. كانت شواهد القبور الحجرية المنتهية بعلامات الصليب توحي لي بأن الموتى يخرجون لنا ألسنتهم الخشبية من باطن الأرض. كانت المقبرة موحشة وتدعو للقشعريرة. أحسست بشعر رأسي يقف كأشواك قنفذ متحفّز لقتال. كانت ثمة رائحة غريبة تنبعث من المكان. خيّل لي أنها رائحة الموتى أو ربما كانت رائحة الموت نفسه. وفي جانبٍ ما من المقبرة وقف عشرات الرجال والنساء المتشحون بالسواد وهم

عادت بنا أمهاتنا متوعدتين إيانا بعقوبة بالغة القسوة. كانت فكرة الضرب في حد ذاتها ليست مخيفة بالنسبة لي، إذ كنت معتاداً عليه من أبي، ولكنني خشيت أن يفقدني الضرب هيبة واحترام الزائر الجديد لذا فقد كنت أحاول طوال الطريق أن أوجد مخرجاً من هذا المأزق. ولم تخطر ببالي أية فكرة منقذة إلا أمام العم سانتوس الذي تلقى إهانات بالغة من أمي ومن العمة كيوريدا لإهماله في رعايتنا أثناء غيابهما. وبطريقة حازمة اقتادنا إلى غرفته وجلس على سريره وأمرنا بالجلوس أمامه. كان كالقاضي الذي يستمع إلى المتهمين قبل إصدار الحكم. سألنا بغضب "ألم أحذركما من الخروج؟" كانت نظراته لي تحمل - بالإضافة إلى الغضب – عتباً من النوع الذي يعني خيبة الأمل. فنطق عفريتٌ ما على لساني:

* لقد غرر بي مورس. كان يصر على الذهاب بينما كنت أمنعه من ذلك، فغافلني وخرج. وعندما خرجت ورائه لأثنيه عن ذلك لم يستمع لي. وبينما أسير ورائه رأيت أيلاً في حرش أوسيكبو تضع مولودها. شدني المشهد الذي كنت أراه للمرّة الأولى. ولأن عملية ولادة الأيل استغرقت وقتاً طويلاً فإنني نسيت ما كنت بصدده. وهذا ما حدث بالضبط. والرب يشهد على ذلك.

كانت هذه أول كذبة أتذكر تفاصيلها. ورغم أنها كانت ساذجة وسيئة الحبكة إلاّ أنها راقت للعم سانتوس كثيراً، واعتبرها كذبة خلاّقة مقارنة لطفلٍ في مثل سني. وكان مورس لونيل ضحية هذه الألمعية إذ تحمّل العقوبة وحده. بالنسبة لي كانت كذبة شديدة الحبكة، ومترابطة لدرجة أنني شعرت بالفخر، وربما كانت تلك البذرة الأولى لموهبة التأليف والسرد القصصي لدي، غير أني لم أعتبرها كذلك حينها، فقد كان الغرض منها هو التملّص من عقوبة وشيكة ليس إلاّ.

إحدى الشخصيات التي أثارت نزعتي الأدبية منذ الطفولة، زنجي يدعى إكسمن دو ريجيلو الذي يعامله الجميع بازدراء واضح. في البدء انتقلت إلي هذه الازدرائية قبل أن أسمعه خلسةً وهو يقول "لن يستطيع أحد أن يمتطي ظهرك إلا إذا انحنيت!" وعندما فاجأتني التفاتته المباغتة هربت وأنا أشك بأنه يمتلك عيناً ثالثة خلف رأسه. لا أعرف ما إذا كان قد تمكن من التعرّف عليّ، ولكنني أذكر أنني بقيت خائفاً بقية اليوم، وظلت كلماته تلك ترن في أذني حتى اليوم. كنت أرى في عينيه حزناً من النوع الذي لا يموت. وشعرت تجاهه بفضول غريب، لدرجة أنني قاطعت أمي وهي تتحدث إلى بعض النسوة وسألتها عنه، وعرفت منها أنه من سلالة رقيق مجلوبة من غينيا كان تاجر نخاسة شهير قد أتى بهم في موسم حصاد القطن. لا أحد يعرف قصته على وجه التحديد ولكن الجميع كانوا يستخدمونه لأغراض مختلفة حتى دون أن يدفعوا له ثمن ما يقوم به.

كانت النساء أكثر من يستخدمنه، فقد عرفت أنهن يستخدمنه في جلب الماء من النهر في مواسم الزراعة، وفي تعليف البهائم، وحمل الأمتعة ورفع أعمدة السقوف الخشبية، والحفر للمواقد. وقد قام بعض الرجال بخصيه

حكى لي العم سـانتوس ببـرود عـن كيـف كـان الجنـرال فرانكـو يـتخلص مـن الجرحى من العبيـد الـذين لا يـصلحون للعمـل بعـد أن انتهـت الحـرب. ممـا لا شـك فيـه أن العـم سـانتوس كـان عنـصرياً كغيـره مـن النـوركيين الفخـورين بأصولهم العرقية. ومما حكاه لي سانتوس عن طـرق الـتخلص مـن الجرحـى السـود، أنهم كـانوا يتركـون الجـرح دون معالجـة، ويجـرّدونهم مـن ملابـسهم، ويغلون أيـديهم خلـف ظهـورهم ويعـصبون أعيـنهم. ثـم يـصلبونهم أحيـاء فـي أعمـدة أسـطوانية ضخمة فـي مكـانٍ مـا فـي وادي غـوادا لاخـارى ويتركـون شأنهم للنسور التي تسكن أعلى القمم الجبلية.

كان دو ريجيلو قليل الكلام، لدرجة ألا أحد يعرف صوته، ولـم يـره أحـد يـضحك قط. كان الغموض الذي يكتنف هذا الشخص مثيراً لي لدرجة أنني كنـت فـي كثير من الأحيان أبحـث عنـه رغـم خـوفي البـالغ منـه. فكـان يخيّـل إلـيّ أنـه سيقتلني لفضولي وتطفلي عليه. ولكنني أحببته بعد جملته التي قالها لـي عندما فزعت لرؤيته فجأة وتعللت بأنني لم أتوقع أن أراه هنـا "إن مـن لا يـرى إلا ما تظهره الأنوار، ولا يسمع إلا ما تصدره الأصوات، لـيس إلا أصـم أعمـى!" قالها بلكنة إسبانية ركيكـة، ولـم أفهـم مـا إذا كـان ينعتنـي بـذلك، أم أراد أن

في ذلك اليوم الذي أنقذني فيه الزنجي من الغرق، عندما انزلقت قدمي على جرفٍ لم أكن أعرف مدى عمق هاويته، رأيته عن كثب. كان وجهه مليئاً بالنتوءات وشفتاه الغليظتان شديدتا الحمرة، وعلى خديه ثمة شعرات صغيرة لا ترى إلا من تلك المسافة القريبة جداً. كنت خائفاً منه رغم أنه أنقذ حياتي، ولم يتركني حتى اطمئن أنني بخير. قال لي بلكنته الإسبانية الركيكة "لا تخف مما لا تعرف، يجدر بك أن تخاف مما تعرف!" كانت نظراته رغم عمقهما المخيف، تحملان حنواً لن أنساه. ومن تلك الحادثة أصبحت لا أفارقه أبداً.

كنت أذهب إليه سراً حيث يتخذ مسكنه في منطقة شبه معزولة. بدأ يخبرني عن قصص أهله وأصدقائه الذين قضوا نحبهم إما على أعمدة غوادا لاخارى الاسطوانية أو تحت سنابك خيل الجنود أو بأيدي التجار. كنت أسمعه في صدره أزيزاً مؤلماً وهو يتنفس بصعوبة بالغة حتى رأيت دمعة منتحرة تسقط من عينيه على خده المليء بالنتوءات. وحكى لي عن بلاده التي جاء منها. لم أفكر بالمفارقة الغريبة في قصته وقصة والديه، غير أن تعاطفي مع وضع الزنوج في تلك الحقبة جعلني لا أسأله عن تلك المفارقات أو الاهتمام بها.

كان إكسمن دو ريجيلو يملك في غرفته الخشبية البائسة كرتوناً مليئاً بالكتب بعضها بالإسبانية وبعضها بلغات لم أتعرّف عليها. عندما شدني تصميم إحدى الكتب قرأته عنوانه الذي كان بالإسبانية "الطوفان" ابتسمت

تعجبت كثيراً عندما غضبت أمي لمعرفتها بمرافقتي للعبد الزنجي، وتعجبت أكثر أنها أخبرت جدي ليتولى معاقبتي نيابةً عنها. واكتشفت أن العزلة التي يعيشها إكسمن ما هي إلا عزلة اجتماعية مفروضة عليه من قبل الأهالي بسبب لونه الأسود؟ قلت لها بأنه شخص طيب القلب، على غير ما يبدو عليه، فشدني جدي من أذني بقوة وأسرّ لي "لن ترتاح حتى يلوط بك، وتعود إلينا بعارٍ لا يمحى" كانت جملته تلك مؤلمة لي أكثر إيلاماً من قرصته تلك. لم أعرف على وجه التحديد ما إذا كان جدي جاداً فيما قاله، أم أنه أراد أن يخيفني منه وحسب. عرفت فيما بعد أن مرافقة الصغار للأكبر منهم سناً أمر مثير للشبهات في كوينكا . ولكنني ظللت على تواصل معه في السر.

أمسيات كوينكا هادئة في الغالب ما عدا تلك الأمسية التي سمعنا فيها صراخاً أنثوياً قادماً من ناحية غربية. للوهلة الأولى اعتقدت أنها سيدة لربما تعرضت لهجوم من إحدى الأرواح الشريرة، لا سيما وأننا كنا نتحدث عن الأرواح الشريرة تلك الأمسية، وبدا لي هذا الاعتقاد راسخاً لدرجة لم أشأ فيها الخروج لمعرفة الحقيقة. ما دفعني للخروج هو عزم الجميع على معرفة مصدر الصوت. فخرجت معهم لأنني خشيت أن أمكث وحدي. كان الصوت ما زال مسموعاً من ناحية ما. سرنا بموازاة نهر كويربو. كنت خائفاً من رؤية هذه المرأة المصابة بالمس، بل كنت أشعر أن الروح الشريرة التي دخلتها سوف تتركها وتدخلني لمجرد رؤيتي. في حالات الخوف لا يكون هناك

عندما وصلنا إلى مصدر الصوت، كنت أتحاشى رؤية المرأة الممسوسة رغم فضولي الشديد لرؤية ما يجري. وعندما صاح أحدهم "لقد غرق فرانكلين" تبخرت مخاوفي فجأة، وانقلبت دون تدرج إلى شعور بالشفقة. عندها تجاسرت ورفعت بصري إلى المرأة التي كانت تقف على حافة النهر. كانت تحمل الماء بكفّيها وتسكبه على رأسها بهستيريا مخيفة وهي تقول "فرانكلين يا حبيبي لا تمت .. أرجوك" ولكن فرانكلين لم يسمع نداءاتها تلك. كانت تعلّق بصرها بنقطة ما في نهر كويربو الهادئ وقتها. خمّنت أنها النقطة التي رأت فيها فرانكلين آخر مرة. شعرت بغضب شديد تجاه النهر، وكرهت السيولة التي تبتلع أجساد البشر هكذا دون أن ترحم أحداً. كان هدوء النهر مستفزاً . لقد ابتلع النهر جثة طفلٍ لم يكمل عامه التاسع بعد. ربما كان أحد الصبية الذين التفوا حولي عند قدومي الأول لكوينكا. تفرّدت في وضع سيناريو لما حدث دون أن أستوعب ما كانت تقصه المرأة على مسامع الرجال بفزع وبلا ترتيب. قررت أن إحدى تماسيح العصر الحجري كان جائعاً ذلك اليوم.

الرجال الذين خلعوا ملابسهم على إحدى الصخور العملاقة، عادوا جميعاً بعد أن قلبوا النهر رأساً على عقب بحثاً عن جثة فرانكلين. قال أحدهم بصوتٍ لاهث "ربما جرفه التيار إلى مكانٍ بعيد." تلك المرأة المفجوعة لم تكن تهتم كثيراً لتحليلاتهم طالما أن وليدها ما زال مفقوداً في هذا النهر الراقد في

وفي يأس مقيت ردد البعض عبارة مشيئية "لقد غرق الصبي وانتهى الأمـر" كانت هي قاصمة الظهر بالنسبة للسيدة النائحة. وبينما بـدأ الجمـع بـالعودة إلى منازلهم، قلّة منا فقط وقفوا لإقناع السـيدة بنسيان الأمـر. كنـت أتـساءل "تـرى أيـن زوجهـا؟" ولمـاذا خبـت نـار الحماسـة فـيهم فجـأة؟ وكـأن الأمـر لا يعنيهم. ترى ماذا سـيكون مـصير هـذه الـسيدة؟ لـم أنتبـه إلاّ عنـدما أمـسك كروسـفينو إميليو بيدي معلناً خاتمة لتراجيـديا كانـت قـد بـدأت للتـو "هيـا بنـا إلى البيت" وبطريقـة لا شـعورية تملـصت مـن يديـه وأنـا أقـول ببـراءة "ولكـن القصة لم تنته بعد" فصرخ في وجهي بتعالٍ "ليسـت فرجة لتقول ذلك" وربمـا كان ذلك أول مرة أكتشف فيها غباء خالي وعجرفته. قلت له: "ولكن الـسيدة ما تزال تبكي" كان يخيّل إليّ أنها لن تبـرح مكانهـا طالمـا أن ابنهـا لـم يخـرج بعد.

كانت تلك أول تجربة موت أخوضها عن قرب. كان النهر بهدوئه المـستفز يبـدو كقاتل أجير يعيد ارتداء سترته المطرية ويغسـل يديه بلا مبـالاة. تمنيـت أن لـو فقأوا عيني المرأة المفجوعة حتى لا ترى قاتل ابنهـا حـراً طليقـاً أمامهـا دون أن يستطيع أحد أن يثأر لها منه.

ذلـك اليـوم لـم أسـتطع النـوم. كانـت ذاكرتـي تعيـد علـيّ شـريط الحادثـة المأساوية باستمرار. وكانت صرخات تلك السيدة ما تزال تسبح فـي فراغـات مسامعي كأنها ذرات غبار عالقة فـي متاهـة فضائية خـارج نطـاق الجاذبيـة. كنت أبكي، بينما كان البعض قد أخرجوا قوارير النبيذ، لا سيما العم سانتوس الذي كان يعشق احتساء النبيذ ومات به. لذا فقد كانت النـسوة لا يـسمحن لنا بالجلوس معهم، ونضطر إما لمرافقتهن وسماع أحاديثهن المملة، أو نلعب في فناء المنزل المليء بالحشرات، ألعاب سرعان ما كنت أضجر منها.

كانت أمي والجدة ماريابيلا تانكريـدو تتـسامران عنـدما دخـل أحـدهم دون أن يطرق الباب لاهثاً ليفتح الباب على مصراعيه سامحاً بدخول آخـرين يحملـون على أكتافهم شاباً مصاباً. كان هذا الشاب هو جرسـفندور رسـل ابـن العمـة تيرا أورفل. قيل أنه لدغته أفعى سامة. قررت أن هذا اليوم يوم نحس!

أسرعت النسوة وجلبن بعض القطع القماشـية وربطـوا بهـا فخـذ جرسـفندور الذي كان يتصبب عرقاً غزيراً. بينما راح أحدهم يفتح جرحين غـائرين بمحـاذاة اللدغة. كنت أشاهد بصعوبة بالغة إجراءات عملية استخراج الـسم مـن قـدم جرسفندور القادم إلـى كوينكـا لقـضاء العطلـة الـسنوية. وضـع المعـالج مـادة بيضاء على الجرح فما كان إلى أن أوشـك جرسفندور أن يقفز من مكانـه لـولا أن أمسك به الشباب بقـوة، ومـا هـي إلا دقـائق حتـى خرجـت مـادة صـفراء مسودة كأنها سكر محروق وهي تفور محدثة فقاعات هوائية على جلده. ثم غطّ جرسفندور بعدها في إغماءة عميقة.

كانت أفاعي أحراش أوسيكبو المرقطة تثير خوف النوركيين فـي قريـة كوينكـا إذ كانت تهدد حياة أبنـائهم بـالخطر كلمـا اضـطروا لعبـور الحـرش إلـى القـرى

إيزابيل نيرون سيدة متزوجة وصغيرة السن، وربما كانت جميلة بحسب معايير النوركيين الكوينكيين. وهي نسخة مكررة من عشرات السيدات المتزوجات من رجال اضطرتهم ظروف المعيشة القاسية لهجرة كوينكا إلى أرتكاتا أو سيجوبيا أو ماربيا أو حتى إلى لاميمبون غرباً. تاركين زوجاتهم في كوينكا بعد أشهر قليلة من زواجهم. غالبيتهم لا يعودون إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات، ليتكشف أنه أصبح أباً لطفلٍ ذو عامين. وبعضهم يكتشف أنه أصبح أباً لأطفال غير شرعيين. لذا فقد كان الزنا ثاني أكثر ظاهرة متفشية في كوينكا بعد السُكر، وتعاطي النبيذ الذي يصنعونه محلياً بأيديهم. وكان صنع النبيذ من اختصاص رجال كوينكا، في حين تقوم النساء بالأعمال الأكثر أهمية ونفعاً.

لم يكن تقييم النوركيين للزنا بمفهومه الديني جريمة أو خطيئة تجرمها الكنيسة، بل كانوا ينظرون إليه على أنه أمر أقل قليلاً من الطبيعي. ولذا فإنهم لم يكونوا يمارسونه في الطرقات. كان عليهم أن يخفوا ذلك، ولكنهم

ذكرياتي عن كوينكا منحصرة في إطار اكتشافي للعناصر الأساسية المؤثرة في الهيكلة الاجتماعية للنوركيين الذين ظلوا فيها ولم ينزحوا كغيرهم إلى أماكن أخرى. كذلك اكتشافي لموهبة الكذب التي أماط اللثام عنها العم سانتوس أورفل وباركها. في تلك المرحلة لم تكن لدي أي نزعة أدبية ، بل كانت مجرد مرحلة اكتشاف وتخزين لا شعورية. على المستوى الشخصي جداً كان الاكتشاف في حدّ ذاته لا يأتي إلا عبر مغامرة تتطلب الخروج قليلاً عن بعض التعليمات الأسرية الصارمة التي كان يفرضها علينا الكبار. ولم تكن نزعتي لحب المغامرة عملة صعبة، بل كان أطفال كيونكا جميعاً يشتهرون بحبهم للمغامرة وكسر التعاليم. ولا أنسى تأثير الزنجي دو ريجيلو فيما بعد على تشكيل الجانب الأدبي لدي.

كان أورفل بودن - الأديب المترهبن - يحاول خرق قوانين الطبيعة البشرية بجعلنا نسخة متكررة عنه، متغاضياً عن الفوارق الجوهرية بين حقبتين متباعدتين زمانياً وثقافياً. لم تكن لدي نزعة إيمانية قوية عندما أصر علينا الذهاب إلى كنيسة العذراء، ورغم ما تثيره الكنيسة من رهبة في قلوبنا

لم أكن مواظباً على الذهاب إلى قدّاس الأحد الذي كان جدي يحاول أن يرغمنا على الذهاب إليه. ورغم ذلك فإن جدي لم يفتأ يقص علينا في كل مرة قصة أحد الأسلاف الذين سخّر له الرب ذئباً يمتطيه ويستخدمه في رحلاته القصيرة بين القرى الصخرية. كما حدثتني يواماريز روجيليو – زوجة أورفل الثانية – في جلسة ودودة عن الأورفليين الذين عرفوا منذ قرون طويلة بأن أطفالهم الأكثر سذاجة وجرأة في خوض المغامرات بين أطفال النوركيين، يظلون كذلك إلى أن يبلغوا سن الأربعين أو أقل قليلاً ليصبحوا قساوسة ورهباناً بعدها. ورغم أن هذا الكلام لم يكن علمياً إلا أنها أكدت لي بنماذج كثيرة جداً على ما تقوله. وكان والدي إحدى هذه النماذج المصادقة لهذا الخط الأسري القديم.

لم يعرف والدي درب الكنيسة إلا بعد أن أنجب زوريكا أختي التي تصغرني بأربعة أعوام. وسمعت من الجدة يواماريز والعمة التوتمية كيوريدا عن والدي قصصاً ومغامرات لم أكن لأصدقها لولا أنهن أقسمن بالرب وروح القدس على صدقهن. كما أن ثمة نسوة سردن عليّ ذات القصص فيما بعد. ما جعل صورة والدي المتدين تنكسر في نظري وتجعلني أؤمن بأن هنالك عهداً

كانت رحلتي تلك إلى كوينكا - والتي صادفت موسم حصاد التوت – ليست بذي بال على الصعيد الأسري، إذ أنني كنت في الثامنة من عمري، وما أن عدت إلى أرتكاتا حتى نسيت كل شيء، ما عدا ما اتسعت الذاكرة لحفظه إلى اليوم. كانت رحلتي تلك أشبه برحلة إلى عالم الموتى والعودة من جديد. إذ لم تكن كوينكا كأرتكاتا زاخرة بالسيارات والدراجات النارية والمباني الزجاجية وشوارع الأسفلت القاتمة. كان ريف كوينكا ساحراً ومخيفاً لكنه لم يستطع أن يحل محل أرتكاتا لدي. ولم تحل القيوط والراكونات الضخمة في كوينكا محل القطط الأليفة التي كنت أعشقها وأهوى تربيتها في المنزل، رغم اعتراض والدي على ذلك. لذا فقد كنت أشتاق إلى منزلنا في أرتكاتا وإلى سريري المصنوع من خشب الماهوجني المحروق بعناية. رغم أنني كنت سعيداً بابتعادي عن والدي الذي لم يأخذ من أورفل بودن غير عنفه

ذلك الصباح الـذي أيقظنـي فيـه ذبـاب لحـوح قليـل التهـذيب، وصـوت سـقوط رفوف المطبخ الخـشبية علـى قـدم جوانيتـا، لـم يكـن صـباحاً اعتياديـاً علـى الإطلاق، فقد كان آخر يوم لنا في كوينكـا. كنـت أشـعر بـسعادة غـامرة وأنـا أراقب أمي وهي تعد الحقائب لرحلة العـودة إلـى توليـدو، بعـد أن لفـت قـدم جوانيتا بشاشٍ طبي واستطاعت جدتي لأمي كفّها عن البكاء بصعوبة. كانت جوانيتا تخاف من منظر الدماء ورائحته، وكانت تبكي لرؤية الدم حتـى وإن لـم تستشعر الألم فعليـاً. بينمـا لـم أعـر كـل ذلـك اهتمامـاً، وأنـا أودع سـانتياغو إميليو وبقية الرفاق الـذين لـم يكفـوا عـن منـاداتي ب"القـط الأرسـتقراطي". ونسيت أن أودع أورفل بودن عندما سمعت صوت أبواق عربة أمادو وهو يـدور دورته الاحتفالية في الساحة العامة. وغادرنا كوينكا عصر ذلك اليوم، وحملـت معي في جيبي خلسة بعض ثمار التوت التي لم أتذكرها بعد ذلك إلاّ عنـدما ساحت وتركت بقعة حمراء كبيرة حسبتها أمي جرحاً.

أول ما فعلته عندما وصلنا إلى توليدو أن ذهبت إلى سـوليداد فيـدل وقبلتهـا تقديراً وعرفاناً مني بما عرفته مـن محبتهـا لـي بـدليل العملـة القيّمـة التـي اكتشفتها فيما بعد، وكانت سعيدةً بذلك أيمـا سـعادة. كانـت سـوليداد تكـره الأورفليين من غيرما سبب واضـح عـدا غـضبها مـن أورفـل بـودن الـذي تـزوج عليها مخالفاً بذلك عرف الكنيسة الذي هو قسيسها الأكبر. وكانت ترجو مـن الرب ألا يجعلني نسخة مكررة من أحدهم، لذا فقد كانت دائماً تكـرر جملتهـا المشهورة "إذا كنت تريد أن يرضى عنـك الـرب؛ فـلا تكـن أورفليـاً صـرفاً" كـان

الفصل الثالث:

العودة إلى أرتكاتا

- ألماس وقضبان حديد -

بعد عودتنا إلى توليدو، بدأ مانويل أوليوس - صديق والدي وزوج السيدة شارلوت كوربن، الفضولية التي رافقتنا في رحلتنا إلى كوينكا - بعمل الإجراءات الضرورية لسفرنا إلى أرتكاتا حيث ينتظرنا والدي هناك. وكان إخلاص أوليوس لوالدي سبباً في أن يحرص على أن يجد لنا حجزاً على متن طائرة ستقلع في اليوم التالي مباشرةً، في حين تحدث الآخرون عن امتلاء المقاعد على الرحلات الجوية تلك الأيام بسبب عودة الآلاف بعد انقضاء الإجازة والاستعداد لموسم المدارس. لا أستطيع أن أحدد علاقتي بالطيران

يناسـبني الجـو الملاحـي العـامر بالفخامـة: الإشـارات والرسـومات الـضوئية، وأصـوات الـرنين التحذيريـة، وأقمـشة المقاعـد الـوثيرة، وأرضـيات الطـائرة المكسوة بسجاد أحمـر لـم تلمـسه الأقـدام العاريـة. يخيّـل إلـيّ أن ملاحـي الطائرة يجدون متعة في المشـي على تلك السجاجيد حفاة بعـد انتهـاء كـل رحلة. ما لا يعجبني في الطائرة: الوجبات التي يقدمونها لا سيما على مـتن الرحلات القصيرة. تذكرني بالوجبات التي تقدمها المستشفيات أو تلـك التـي تتناولها جوانيتا عندما تتبع الحمية، كلما أحـسـت بـسمنة مفرطـة. وكانـت لا تحس بذلك إلا عندما تضيق عليها ملابسها.

في تلك الليلة، ودعتني توليدو بطريقة احتفالية خاصـة جـداً جعلتنـي أضـيف إلـى قائمـة الأشـياء التـي أخـشاها اسـماً جديـداً عنـدما طلبـت منـي أمـي باعتماديـة كبيـرة أن أشـتري لهـا عـسلاً مـن إحـدى المتـاجر القريبـة. كانـت تخطط لأن تحمله هديـةً لوالـدي الـذي يعـشق العـسل كالدببـة الأسـترالية. ولأنها كانت على قناعة كاملة بأن عسـل أرتكاتا مغشوش ومزيد بالمـاء فإنهـا كانت ترى أن خير هديـة تحملـه لأبـي مـن توليـدو هـي رطلـين مـن العـسل الطبيعي. كنت أتساءل دائماً ما الذي يعجبها في والدي!

بخطوات مسئولة ومعتدة خرجت من البيت حاملاً معي وعاءً ذو غطاء خـاص. وفي طريق العودة بعد أن اشتريت العسل الـذي وضـع لـي فيـه البـائع بكـرمٍ جم خلية شمعية مـن النـوع النـادر بعـد أن أخبرتـه بـأن هـذا العـسـل سـوف يذهب إلى أرتكاتا خصيصاً، وفي إحـدى التقاطعـات رأيـت كلبـاً يقـف بـشموخ على صخرة هائلة بينما كـان يرمقنـي بنظـرات مريبـة، وكأنـه يحـاول أن يقـرأ ملامحي غير المألوفة لديه. وعلى طريقة الألمان بادر بهجومٍ غير مبرر، الأمـر الذي جعلني أركض بهستيريا كمن يحـاول الهـرب مـن صـاعقة سـماوية مـن النوع المباغت. لم تكن أرض توليدو صالحة للجري المـستقيم، فكانـت الحفـر والتعرجات التي تثخن الشـارع تحول دون أن أفلت من بين أنيـاب ذلـك الكلـب النازي.

عندما بدأت أسمع صوت زفيره خلفي مباشرة بوضوح تام، كأنه تنين همجـي جـائع، عنـدها بـدأ الأدرينـالين يرتفـع لـدي، وأدركـت بفطنـة الخـائف أن وعـاء العسل الذي أحمله يثقلني بطريقةٍ ما، فرميته أرضاً لأنجو بنفسـي. غير أني سقطت غير بعيد من وعاء العسل الذي كـان قـد تكسـر وجـرى بتثاقـل كأنـه جدول من الحمم البركانيـة. مـا جعلنـي أشـعر بالاسـتفزاز ، أن الكلـب أقفـل راجعاً عندما سقطت أرضاً دون أن يبدي أدنى مشاعر متأسـية أو حتـى دون أن يعض قدمي. لم أعرف عندها سبباً منطقياً لمطاردته لـي طالمـا لـم يكـن العض في نيته! الأمر الذي كان أكثر واقعية هو أنني نجوت من عـضة الكلـب، لأقع ببلاهة بين يدي أمي التي لم تغفر لي سكبي للعسل أرضـاً وكـسري للوعاء الثمين، كأنها لم تكن لتبالي لـو أن ذلـك الكلـب الهمجـي الـتهم جـزءاً من قـدمي فـي مقابـل أن أعـود إليهـا بوعـاء العسـل. لـم يعجبنـي أسـلوبها

أمي بسذاجة نساء عصر النهضة، تعتقد أن الأبناء مجرد مظهر اجتماعي. لذا فقد كانت تفعل ما بوسعها لتثبت للجميع بأن أبنائها هم الأكثر تهذيباً والأقل مشاغبة. لم يكن ذلك سلوكاً فردياً، بل كانت تعاليم والدي الصارمة هي في الحقيقية الجانب النظري الذي تعتمد عليه في كل ما تقوم به دائماً. وهي "أي التعاليم الأبوية" بدورها مستقاة من نهج أسري قديم جداً يجعل الأبناء سلعاً للعرض وليس للاستهلاك.

والدي الذي استقام مؤخراً، أحس برغبة ملحة في إنشاء أسرة محافظة، فكان له ذلك. ولكم كانت تعجبني دقة والدي في عمله. حتى على المستوى التناسلي؛ فقد أنجب من أمي ستة أبناء، حرص على أن يجعل بين كل اثنين سنتين، وبين كل أربعة أربع سنوات. ولا أعلم كيف استطاع أن يحدد ذلك بكل دقة! غير أن هذه المزاجية التناسلية العالية والمنظمة لدى والدي كانت تروق لي كثيراً.

لم تحظ أمي بكفاية من التعليم. عندما أبلغها الجد مانويل إميليو هاتفياً بخاطب يطرق بابها، بينما كانت تقضي عطلتها المدرسية في الريف الفرنسي لدى خالتها الجدة تريسا بيلي. وربما كانت جذور أمي الفرنسية سبباً في احتفاظها باللون الأبيض المائل إلى الصفرة، بينما كان والدي كبقية النوركيين ذو بشرة حنطية مشوبة بالحمرة الهادئة. كانت أمي لا تعرف والدي جيداً عندما تقدم لخطبتها، غير أنها – كما تقول دائماً – كانت

وفي إحدى غرف بيت العائلة الصغير بتوليدو كانت ثمة صورة قديمة لوالدي ووالدتي في يوم زفافهما معلقة بعناية على الحائط. يقف فيها والدي وقفة عسكرية ونظرات ساذجة مشدوهة تدل على أنه لم يعتد التصوير الفوتوغرافي، بينما جلست أمي كسيدة بارونية نبيلة بابتسامة دافئة فوق عادية. وبخط يدوي أسفل الصورة على شريط أبيض لاصق كتبت جملة: "حفل زفاف سارجينيو أورفل بودن/ كارول مانويل إميليو – شتاء عام 1971م."

أمي التي أخيراً توقفت عن البكاء على "العسل" المسكوب، كانت قد بدأت في وقتٍ متأخرٍ من الليل في إعداد حقائب السفر، وبأسلوبٍ توددي كنت أساعدها في ذلك، ربما كان ذلك نابعاً من إحساسي العميق بالذنب لما اقترفته ذلك الصباح. بينما نامت جوانيتا في حضن سوليداد فيدل التي ظلت تراقبنا من فوق سريرها النيكلي دون أن تنبس ببنت شفة. تلك الليلة لم أستطع النوم. تناوشتني مشاعر متضاربة ما بين الحنين إلى غرفتي وقطتي التي صنعت لها تحت سريري سريراً من الكرتون وفرشت عليه لحافاً قديماً استأذنت أمي في استخدامه. كان والدي يكره القطط وما تخلفه من روث وروائح. كان دلالها يثير فيه حنقاً غريباً لم أستطع أن أفهمه. قلت "من لا يحب القطط لا يملك قلباً بشرياً!"

لا زلت أذكر ذلك اليوم الذي بلغ به ضجره من القطة أن أمسكها ووضعها في شوالٍ من ذلك الذي المخصص لتخزين الفحم الحجري، وأفلتها في مكانٍ

كانت أمي تقول لي دائماً أن أرواح الموتى من الأطفال تتلبس أجساد القطط وتتمثل بهم. وأذكر أنها قصت عليّ ذات ليلة قصة ارتدعت منها فرائصي خوفاً. كانت تقول القصة:

"أن أماً فقدت ابنها ذو الأربع سنوات في إحدى الطواعين التي كانت قد انتشرت وقتها. وظلت حزينة عليه حتى أصيبت باكتئاب حادٍ أصبحت بعده قليلة الخروج من البيت، بينما كانت بدأت اهتمامها بتربية قطة صغيرة عثرت عليها في مطبخها دون أن تعرف من أين أو كيف دخلت إلى هناك. كان يبدو عليها الجوع، فأطعمتها الحليب وظلت ترعاها وتسلي نفسها بملاعبتها. كانت مشاغبة القطة تشعرها بالمرح الذي افتقدت طعمه منذ رحيل طفلها قبل ما يربو على العام.

ذات ليلة أغلقت السيدة باب مطبخها دون أن تعلم بوجود القطة داخله. وظلت تبحث عنها في كل مكان في أرجاء المنزل. خمّنت أنها قد تكون في مكانٍ ما، وأنها لا بد أن تعود. خلدت السيدة للنوم بعد أن طمأنت نفسها بعودة القطة في ذات الليلة. غير أن حلماً مزعجاً جعلها تستيقظ فزعة وهي تحاول أن تستدرك واقعية ما رأته من عدمه، إذ رأت في منامها أن ابنها

فـي مطـار أرتكاتـا المـسقوف بالزجـاج العـازل للحـرارة والـصوت، والأرضـيات الرخامية المغرية للتزحلق. كانت أمي تحـاول جاهـدة تجفيـف مـا تبقـى مـن دموعها التي ذرفتها في توديع الأهـل بتوليـدو. كنـت أنـا وجوانيتـا منـشغلين بمتابعة النـافورة الموسـيقية الموضـوعة بأناقـة فـي منتـصف صـالة الانتظـار، بينما كانت أمي تقـف جـوار الناقـل المتحـرك فـي انتظـار الحقائـب. وبطريقـة متحفظـة جـداً اسـتقبلنا والـدي خلـف الـسياج المـصنوع مـن معـدن الكـروم والمخصص لانتظار المـستقبلين. كـان يرتـدي قبعتـه المافياويـة والتـي كانـت موضة ذلك الوقت، بينما كان لا يـزال يـدخن الـسيجار الكـوبي كثيـف الـدخان كمظهر أرسـتقراطي عديم الجدوى والذي لا يتوافق مع توجهـه الـديني. قبّـل أمي فـي جبينهـا بـدون عاطفـة جـادة، واكتفـى بالمـسح علـى شـعورنا أنـا وأختي، كأننا أشـابين، وهـو يمـسك بالعربـة المتحركـة - التـي كانـت تحمـل الحقائب - من يد أمي. وكالعـادة فإننـا نكتفـي بـأن نـرى الـسوق الحـرة مـن بعيد، دون أن نتسكع فيها لبعض الوقت كما يفعل الآخرون.

فـي البيـت، وبينمـا كانـت أمـي تعيـد ترتيـب الأشـياء. اكتـشفت أننـي أحـن بطريقةٍ ما إلى كوينكا. ربما لأن رطوبة الجـدران الأسـمنتية كانـت تحـول دون أن نتـنفس هـواء نقيـاً كـذلك الـذي كـان يمنحـه لنـا الـرب فـي كوينكـا. تلـك النسمات الدافئة القادمة مـن أحـراش أوسـيكبو ووادي غـوادا لاخـارى ولاس توركاس الآهلة بالأيول والغزلان البرية. كما أنني لم أعثر في البيت علـى أيٍ

ما زاد إحساسي بخيبة الأمل هو أنه كان يتوجب علينا الإعداد للمدرسة مباشرة، الأمر الذي جعلني لا أطمئن لكوني سأعود للمقاعد الدراسية بعد ثلاثين يوماً من الحرية. لم أكن كبقية أطفال أرتكاتا الذين يعشقون الجو المدرسي لما يجدون فيه من متعة الالتقاء بالأصدقاء والشغب الطلابي البريء. كنت على يقين بأن المدرسة أمر ضد الرب وضد البشرية، وهي – بطريقة ما – إصلاحية في شكل أكاديمي تقريباً. فكان مجرد فكرة الاستيقاظ من النوم في الصباح الباكر في شهر أيلول يبدو كالتعذيب الذي يتلقاه السجناء السياسيون في سجن باتورن باي ذو الأسوار العالية الصماء. وما كان يزيد الأمر سوءً هو ربط والدي الدراسة بالإيمان! فلم يكن والدي يحرص على تذكيري بشيء بقدر إنهاء الواجبات المدرسية والذهاب إلى الكنيسة بانتظام وحفظ التراتيل التي كانت تدرّس لنا فعلاً في المدرسة. هذه المرة، كان إحساسي بوالدي مغايراً بعد معرفتي لتاريخه المراهق الذي لم يكن ناصع البياض كما كان يحاول أن يقنعنا به.

كانت الرغبة الجامحة لوالدي هو أن يمحي تاريخه القديم من ذاكرة الآخرين، وأن يبدؤوا بمناداته باسم "الأب" ورغم أنه تحصّل فعلاً على اللقب بمباركة باباوية في إحدى احتفالات التنصيب بالكنيسة إلا أنني لم أكن على قناعة بهذا التنصيب، فقد كان والدي ديماغوجياً (4)من الدرجة الأولى، لاسيما بعد

منذ بداياتي وأنا أحاول أن أجد طريقة ما أسهل للتقرب إلى الرب. طريقة لا تكون مرسومة بأيدي بشرية أبداً. لذا فإنني لم أوفق أبداً في التمتع بالشعور الديني الذي كان يتمتع به الجميع عند وقوفهم أمام لوحة العذراء الباكية تحت أقدام يسوع العاري المصلوب. كنت أرى أن الخشوع قناع من بلاستيك شفاف سرعان ما يذوب بفعل حرارة الحياة المادية خارج جدران الكنيسة. حتى الكنيسة نفسها كانت تغمرني بذات الشعور الذي تمنحه لي المدرسة. وكانت جذوة المشكلة التي نشأت بيني وبين والدي متمحورة حول هذه النقطة تحديداً.

ذات يوم سألت والدي عن كيف سمح الرب بصلب ابنه ، وترك الأشقياء دون عقوبة! وما زلت أذكر كيف قطّب حاجبيه وانتفخت أوداجه - كضفادع بركة الأوراليوس في موسم التزاوج - وهو يصرخ في وجهي زاجراً وكاد أن يصفعني لولا تدخل ابن عمه أرماندو رسل المعتدل ومنعه من ذلك. كانت الهرطقة هي الجريمة التي لا تغتفر من قبل والدي والرب على حد سواء، ولكنني كنت مهجساً بهذا السؤال على أي حال.

لم أشعر في حياتي بشعور استقلالي، فقد كانت حياتي في بيت أبي في أرتكاتا كحياة عمّال مناجم الألماس فيها. ولا تزال قصص الذي ماتوا تحت الأعمدة الخشبية الغليظة ممتلئين بالقهر وأتربة المنجم تذكرني بالمصير الذي ينتظرني في آخر الطريق، ما جعلني أكثر شراسة. ثمة صورة عتيقة كان أبي يصر على تعليقها في غرفة استقبال الضيوف. صورة لأربعة رجال داخل المنجم يرتدون الأفروهولات المتربة، وقبعات من طراز الكاسكتّة. أحدهم يحمل فانوساً زيتياً وقد تدلت حمّالة كتفه أسفل ذراعه، بينما لم يبد مهتماً بهندمة نفسه لحظة التصوير، وكان الآخرون يحملون معداتهم وأدوات الحفر، كان أبي أحدهم بالتأكيد، وكانت على شفتيه المضمومتين بقايا جملة هزلية، وخلفهم مباشرة جدار جرانيتي داكن. لم أكن أعلم سر إصرار أبي على الاحتفاظ بهذه الصورة البائسة. غير أنني علمت فيما بعد أنه أرسل نسخة منها إلى أخوته في كوينكا فخوراً بما يحققه ويفعله في بلد الألماس.

ثمة أسماء ووجوه أتذكرها كلما مررت بشريط ذكرياتي بالصدفة على مرحلة عمرية ما من حياتي: إخيليو نوريس وماريو كانسيليو هذا بالإضافة إلى العم سلفادور أورفل والجد مانويل إميليو الذي ارتبط اسمه لدي بشوكولاته جوز الهند، إذ كان يعمل في مصنع يعمل في صناعة هذا النوع من الشوكولاته. ولم يكن يأتي منزلنا إلاّ وهو يحمل علبة كبيرة تحتوي على 24 إصبعاً من الشوكولاته المغلفة بطبقة من جوز الهند الفاخر.

مانويل إميليو أحد المئات الذين هاجروا كوينكا مبكراً، واختلفت الروايات حول سبب هجرته. فبينما تقول أمي أن والدها هاجر بسبب الطاعون الذي عصف

مالقة هذه المدينة البحرية التي كانت تسميها بعض كتب التاريخ بالمالكة أو الملكة على حد تعبير إحدى روايات كتب التاريخ المعاصر لأسبانيا، هي أول مدينة يدخلها صناعة تجفيف الأسماك وتمليحها. وتقول إحدى المصادر أن اسم مالقة ربما اشتق من "مالحة" لهذا السبب. وكانت الآثار الفينيقية ما تزال موجودة بها عندما غزتها الجيوش العربية قديماً.

لم ترق لي تلك الرواية التي تحاول وصف مانويل إميليو بالمراهق الذي يركض خلف شهوته الضائعة بين فخذي فاتنة برتغالية عابرة. بينما كانت ملامحه أكثر رزانة مما كانوا يحاولون تصويره. لذا آمنت برواية أمي. وربما لم أكن أرغب بتصديق تلك الرواية الماجنة لأنني لم أشأ أن أكره الشخص الوحيد الذي أحببت هداياه القيّمة، رغم أنه كان يحمل تلك الرائحة الغريبة التي يحملها بقية العجائز .

في منزلنا المكوّن من طابقين، كانت ثمة سيدة عمياء تسكن في الطابق العلوي. زوجها السيد فرانكو ماتيوس الذي كان يعمل في إحدى شركات التغليف. كان عديم الذوق كما يصفه الجميع. رجل حاد الطباع، ذو ملامح متخشبة. كنت أقول في سري أن الرب لحكمة جليلة أفقد هذه السيدة

الأطفال يحبون الجميع بطبعهم، فالحب هو الفطرة الإنسانية الأولى، بينما يكتسب الإنسان الكراهية بالتدريج عبر مراحله العمرية المختلفة. والكراهية لدى الأطفال ببساطة تعني التوقف عن الحب. ولأنهم، الأطفال، أكثر شفافية من غيرهم، فهم يستطيعون التفريق بين من يحبهم بصدق، وبين من يتظاهر بذلك. في مرحلةٍ ما يميل الأطفال، بالتعلّم، إلى كراهية البالغين، لأنهم يحاولون فرض سلطتهم عليهم. والأطفال لا يحبون السلطة بطبعهم. الحرية والحب والحركة. هذه هي الحاءات الثلاث التي يتغذى عليها الأطفال إضافة إلى حاء الحليب. فهم بحاجة لحرية تسمح لهم أن يتحركوا ليكتشفوا هذا العالم، وأسراره التي تبعد عن أيديهم فقط بضعة أقدام. وهم بحاجة ماسة إلى أن نحبهم بالدرجة التي تجعلها لا نقرأ حركتهم هذه على أنها "أفعال تخريبية"

إخيليو نوريس إحدى الشخصيات التي ما زلت أتذكرها جيداً في طفولتي. كان والدي يعتمد عليه في الاعتناء بنا أثناء غيابه وأمي عن البيت لوقتٍ

قرأت ذات مرّة في كتاب منزوع الغلاف أن الأبيض ليس لوناً بل هـو "اللالـون". وعدمية اللون، لون آخر محايـد تمامـاً، لـذا فـإن البـشرية اتفقـت منـذ القـديم على اختيار اللون الأبيض كدلالة للاستـسلام والـسلام، رغـم الفـارق الكبيـر بينهما. كما يذكر الكتاب أنه يصعب على وجه التحديد معرفة اللون الأول فـي العالم. بينما تذهب بعض النظريات الفيزيائية إلى أن الألوان وجدت لذاتها كـلاً على حدا، إلا أنه تم تحديد ألوان "معاصرة" كاللون الأرجـواني، والبنفـسجي، والقرمزي التي اكتـشفها الإنـسان بمحـض الـصدفة. ورغـم أن هـذه النظريـة اللونية مشكوك فيها إلاّ أن لها مدارس تلقـى رسـالتها رواجـاً كبيـراً بـين فئـة كبيرة من الرسامين التشكيليين الذين يؤمنون بعصرانية الألوان لذا فإننا نجـد لوحاتهم الأكثر غرابة ورمزيـة هـي التـي تتخـذ مـن التلاعـب بـالألوان عنـصراً أساسياً فيها معتمدين في ذلك على "التجديد" الـذي هـو نقلـة نوعيـة فـي عالم التلوين. ربما لـم يكـن ذلـك ذا علاقـة مباشـرة بالأطفـال، ولكننـي فقـط أحسست أن ثمة رابط بين نـشأة الألـوان، ونـشأة المـشاعر الإنـسانية فـي تمحورها من الحب إلى الكراهية. إذ تتدرج الألوان من الأبـيض "الأكثـر صـفاءً" إلى الأسود "الأكثر قتامة".

كان إخيليو نوريس "القاتل المأجور" الأكثر قابلية من غيره من الذين فرضوا أنفسهم دون تكليف رسمي من والديّ حتى! الأمر الذي كان يثير شعوري بالامتعاض الشديد من هؤلاء البالغين. بينما كانت التقاليد تسمح بأن يتدخل كل الكبار في تربية وتأديب كل الصغار. وكأننا جراء لقبائل بدائية. الأمر الذي جعلني أكثر حساسية تجاه الآخرين، وأكثر تحفزاً. كانت الحياة في أرتكاتا حياة جامدة رتيبة. وكأنها حياة مسبقة الصنع في قوالب متناسخة بحيث يمكنك تخمين مجريات اليوم التالي لكل يوم. كان أبي شخصاً نمطياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. فلم يكن يعشق التغير، لا سيما الفجائي منه. وهذا ما جعله يبدو أكثر حذراً وتردداً.

لم يكن من الصعب عليّ أن أعرف أنني أنتمي لأسرة أحمسية(5) تميل إلى المسالمة، وربما كانت القبائل النوركية قبائل أحمسية بطريقة ما. وعلى الطريقة النوركية التقليدية فقد كانت أمي تحذرنا من التشاجر مع الآخرين "لا تختلق المشاكل، وإن واجهتها تملّص منها" هذه الطوباوية جعلتني إلى وقتٍ قريب لا أستطيع أن أحدد الفارق على وجه الدقة بين الجُبن والحكمة. ولا زال النوركيون يعتبرونني همجياً مقارنة بمعايير مذهبهم المسالم. وكنت لأقبل بأية قيمة مقابل أن أعرف موقفهم من الحرب الأهلية التي اندلعت في منتصف الثلاثينيات.

كان أبي رغم الفخر الذي كان يخفيه بإنجابي، يعاملني معاملة قاسية، تذكرني بالحياة العسكرية التي كان يعيشها الجيش الإسباني بداية تشكليه، ويعلل ذلك بأنه يحاول أن يصنع مني رجلاً حقيقياً. غير أنني كنت أكيداً من أنه أخفق تماماً في جميع توجهاته. ولقد عرف ذلك عندما أنجب أخوتي البقية، عندها، شعر بحوجته لاقتناء كتب متخصصة عن الأساليب

رغم كل ذلك كان السلوك الأبوي يطفو رغماً عنه في بعض المواقف النادرة جداً. وأذكر أنني لم أكن لأصدق تلك الانقلابات المزاجية التي كان يمر بها عندها. فعندما عدت أمسية ذلك يوم من رحلة مدرسية إلى متحف سانت كورت، وجدت الجد مانويل إميليو في انتظاري على درج المنزل، والمشهد الخلفي من ورائه لأناس أعرف بعضهم ولا أعرف البقية. كانت الأنظار كلها تتجه نحوي بشفقة. لم أستطع وقتها أن أخمن سبب وجود هؤلاء بهذه الصورة المتأسية، غير أنني لم أستطع أن أتقدم أكثر، حتى لوّح لي مانويل إميليو بيديه المرتعشتين بأن أتقدم. وعندما فعلت احتضنني بقوة وهو يبكي بحرقة، ورائحة شوكولاته جوز الهند تفوح منه نافثة هذه المرة. كانت نظرات الرجال من ورائه تثير فيني تساؤلات متفاقمة. وكانت دموع مانويل الحارقة تفتفت حجار دهشتي وتحيلها إلى كِسَر من الخوف والرهبة. "أين كنت يا عزيزي؟ هل أنت بخير" كانت اللهفة الأبوية التي سألني بها مانويل لا تقبل القسمة على أكثر من تخمين. عندها عرفت أن ثمة أمراً ما سمعه هؤلاء عني. أمراً جعلهم يظنون أنني لست بخير.

لم يكن لأبي أو أمي أي أثر في المنـزل، الأمـر الـذي زاد مـن توجـسـي. ومـا هي إلا بـضع سـاعات وعـاد أبـي يتقـدم بخطـوات متـرددة بينمـا كانـت أمـي تمسك بدرابزين الدرج وهـي تحـاول الـصعود. وكأنهـا خـائرة القـوى. سـقطت أمي على ركبتها قبل أن تكمل صعود الدرج بينما أشـارت لـي بيـديها بعـد أن رسـمت على صـدرها علامـة الـصليب فـي امتنـان، فارتميـت علـى أحـضانها لتبكي ما شاء الرب لها أن تبكي. وجهي الذي بللته أمـي بـالقبلات والـدموع كان الشيء الوحيد الذي تمنى أبي أن يراه قبل أن يجثو علـى ركبتـه مخبئـاً وجهه بـين كفيّـه. علمـت بعـد حـين أنهمـا تلقيـا اتـصالاً هاتفيـاً مـن مجهـول يفيدهم بأن الباص المدرسي الذي كان يقلني قد تعرض لحادث تـصادم فـي طريقها إلى متحف سانت كورت.

بعد هذه الحادثة قرر والدي الرحيل من المنزل إلـى منـزل آخـر. وهـذه المـرة اختار أن تكون الأقرب إلى الكنيسة. كان والدي يتعجّب كيف لم يحترم أولئـك الكاذبون هيبة ردائه الأسود ذو الياقة البيضاء، وكان يسمهم بالمارقين، كلمـا جاء ذكرهم. طوباويته المفرطة التي جعلته لا يتوقع الشر من الآخرين. كثيـراً ما كانت أفكار جهنمية تراودني حول الانتقـام مـن أولئـك "المـارقين" بطريقـة تجعلني استعيد دموع أمي التي ذرفتها عليّ هـدراً، ولكننـي لـم أفلـح فـي جميع محاولاتي البائسة أن أفعل. وحققت علـى المـستوى الشخـصي رضـاً نسبياً بنجاحي تلك السنة بتفوق.

في المنزل الجديد، لم يكن الحـظ حليـف والـدي القـسيس الـذي تفاجـأ بعـد أسبوعين من الانتقال، بأن جاره الذي يقطن فـي الـشقة الـسفلية مباشـرة يعمل قـوّاداً. وفـي مكـانٍ آخـر كانـت القـوادة مهنـة نبيلـة، حيـث تقـوم علـى فلسفة التوفيق بين راغبين في ممارسة "الراحة الفطرية" التي ألقاها الـرب

مـاليوني – مجهـول الجـذور – كانـت لديـه عـادة احتـساء فنجـان النـسكافيه الساخن في شرفته كل صباح، وهو يقرأ الجرائد اليومية، ويراقـب المـارة دون فضول. كان لمنظره الناعم والبراق أثره البالغ في كسب علاقات واسعة جـداً لا سيما بـين الطبقـات الأرسـتقراطية. وعنـدما أتاحـت لـي الفرصـة ذات يـوم الـدخول إلـى شـقته عرفـت ولعـه باقتنـاء التحـف والتماثيـل الخـشبية منهـا والعاجية. في زاوية ما من منزله كان ثمة تمثال جبسي مطلي بدهانٍ خاص لامرأة عارية تحمل دلو ماء أو ما شـابه، كـان التمثـال مـصنوعاً بإتقـان لدرجـة أنني حسبته حقيقيـاً للوهلـة الأولـى. والغريـب أنـه كـان يحـتفظ فـي منزلـه بلوحـة كبيـرة لـصلب المـسيح. لـم تكـن اللوحـات التـي يقتنيهـا لرسـامين مشاهير، ولكن يبدو أنه كان يختارها بعناية فائقة. على جـدارٍ مـا ثمـة لوحـة "العشاء الأخير" ليوناردو دافينشي يبدو أنها مزيفة بوضوح بألوان باهتـة وغيـر مطابقة للوحة الحقيقية. "الحياة هي المتعة، وعلى الجميع أن يستمتع كمـا يحب!" هذه الجملة التي حفرت بإزميـل علـى طريقـة النحـت بـالحرق علـى

ذلك اليوم، عندما ابتسم في وجهي، اندفعت بحماسة لأسـأله. وكنـا حينهـا قد اعتدنا على الأحاديث المطوّلة. أعتقد أنني الوحيد الذي اكتـشف الجانـب الإنساني لديه، بالإضافة إلى ميله للأطفال والتحدث إليهم. سألته عن صـلة القرابة التي تربطه بهؤلاء الفتيات، فضحك حتى كاد يختنـق، ولـم يـرد علـيّ. فقط اكتفى بأن مسح علـى شـعري وهـو يقـول "كاسـبرو – أيهـا الـشقي - مازلت في العاشرة من عمرك. غداً تفهم كل شـيء" كنت قد أدمنت كراهيـة هذا المستقبل اللعين. فعندما كنت ألعب كان والدي يصيح في وجهي "غـداً عندما تنتهي من الدراسـة بوسعك أن تلعب بقية عمرك" ولم يكـن هـذا الغـد ليأتي أبداً. وكأن الرب يخبئه عني تحديداً.

في السنوات القليلة التي قضيناها في هذا المنزل، لم يكن يزورنـا غيـر قلّـة من الذين كانوا يجدون في أحاديث والدي الوعظية متعة لا تضاهيها أية متعة أخرى، فهم كمن كانوا بحاجة إلى من يذكرهم بـالرب يـسوع. بعـض النـسوة كن يعتقدن أن أبي ينحدر مباشرة من ذرية أحد حوارييه، وكـنّ يتعـاملن معـه باحترام لا يليق بهن. لم تكن تلك الهالة القدسية حول والـدي وحـول جـذورنا الدينية مثار اهتمامي على مدار تلك السنوات، فقد كنـت شـغوفاً بالمناكفـة الطفولية واللعب.

الفصل الرابع:

أماتا دادوريس .. البداية

- نقر على خشب الذاكرة -

في إحدى مراحلي الأكثر تمرداً والأقل نضوجاً، تعرفت علـى أماتـا دادوريـس البتشوية التي حضرت مع أسرتها إلى أرتكاتا دون رغبتها. كانت أماتا القرويـة حديثة العهد بشوارع الإسفلت والمباني الخرسانية جميلة إلـى الحـد الـذي عالج حيائي المفرط. فلم أستطع ألا أصارحها بحبـي فـي أول فرصـة جمعتنـا منفردين. وكان ذلك في العيـد الحـادي عـشر لمـيلاد أختـي الـصغرى زرويكـا التي كانت أول من استنّ الاحتفـال بأعيـاد المـيلاد فـي المنـزل، إذ لـم هـذه التقاليع البرجوازية من تقاليـدنا الأسـرية حتـى جـاءت زوريكـا. كنـا وقتهـا قـد أمضينا شهرين أو يزيد من أول تعارف تم بين العائلتين. ما أعجبني فـي أماتـا أنها كانت تملك أنوثة طاغية، وبشاشةً مستدامة، رغم أنها لم تكـن سـعيدة بمجيئها إلى أرتكاتا. وكرجلٍ حنطـي فـإن الفتيـات البيـضاوات كـنّ أكثـر إغـراءً وجذباً لي من النوركيات المـائلات إلـى الحمـرة. وربمـا كـان ذلـك بـدافع ميـل الذكور لأمهاتهم كما استشفّ سيجوند فرويد(6). وكانت الأنثى الوحيدة بـين أربعة أخوة ذكور، ولذا كان والداها يفرطان في تدليلها كيفما اتفق.

في إحدى شوارع أرتكاتا المتعرّقة بمطر الشتاء، كان الشيء الذي لا يتوقعه أبي أن يجد نفسه مضطراً لمرافقة رجل كفيف لا يحمل عصاه وأن يعبر به الشارع المكتظ بالسيارات المتهورة. ظل الكفيف يتلو شعارات الشكر والامتنان على مسامع والدي حتى عبر به الشارع، وتقبل بكل سرور نصائحه الواعظة "لا يجدر بك أن تسير بمفردك دون عصا مرشدة، الرب ليس شرطي مرور!" وقبل أن يفترقا عرّف الكفيف بنفسه، "أدعى دادوريس، ديجو دادوريس. وأنت؟" غيظ والدي الذي تحوّل فجأة إلى ضحك غير منقطع كانت الشرارة الأولى في علاقة أسرية دامت سبعة عشر عاماً. فقد تفاجئ والدي بأن دادوريس ليس بكفيف، ولكنه – كما قال – كان يريد امتحان إيمان القساوسة السلوكي. وكان دادوريس أول من استمع إلى قصة تحوّل والدي من عامل منجم ألماس إلى قسيس كنيسة كاملةً.

كانت أماتا الأنثى الملهمة التي ظلت تهبني القدرة على الكتابة. كنت لم أملك بعد مخزوناً لغوياً يجعلني على قدر أن أهديها أعمالاً من كتاباتي، لا سيما وأنها الأنثى الأولى في حياتي، فكنت اضطر لسرقة ما يناسبني من أعمال كاهيتي(7)، ولوركا(8) ، وأوتيرو(9) ، وثيلايا(10) ساعدني على ذلك أنها لم تكن مهتمة بالقراءة. هذه السرقات لم تكن تتم عشوائياً، إذ تطلبت مني أن أمضي أوقاتاً في البحث عن الأعمال الجيدة بمقاييسي ذلك الوقت، ومناسبة لحالتي العاطفية، أو على الأسوأ يمكن معالجتها بحبكة مصطنعة. فيما بعد، وجدت أنه أصبحت لدي القدرة على المحاكاة، ولم أكن أعرف أن تلك السرقات كانت – بالإضافة إلى فلسفة دو ريجيلو الزنجي، وموهبة الكذب الأولى البذرة الحقيقية لخلق كاسبر سارجينيو شاعراً!

في تلك الحقبة، كنت قد بدأت أعشق القراءة من خـلال طوفـان الولـه الـذي وفرتـه لـي رغبتـي فـي سـرقة الأعمـال لتقـديمها لأماتـا فـي المناسـبات المجيدة. لم أكن بعد مقتنعاً بجدوى أن أكون متديناً طالما أنني لم أجد إجابة على سؤالي الهاجس "لمـاذا سـمح الـرب بـأن يـصلب ابنـه؟ وأيـن أجـد قبـر يسـوع؟" حتى تلك اللحظة التي صارحت فيها أماتا بتلـك الهـواجس. كانـت – كغيرها – تخشـى الخوض في هكذا أمور، وتضع غول الهرطقـة بـين قوسـين، ربما كانت على نحو ما تستشعر رهبة كوني ابن قسيس متزمت. غير أننـي استبـصرت رغبتهـا فـي معرفـة الإجابـة. كانـت تحبـذ أن نمـضي أوقاتنـا فـي الحديث عن سلالات النباتات العطرية النادرة التـي يوجـد القليـل منهـا علـى سفوح جبل عين الشمس، وقدرة تلك النباتـات الخارقـة علـى عـلاج البهـاق وأنواع قليلة من الالتهابات الجلدية.

لم تكن علاقتي بأماتا تخلو من مظاهر برجوازية تتمثل فـي ميلنـا إلـى قـضاء ساعات طويلة في المحادثات الهاتفية التي غالباً ما تصب في كـوني متغـزلاً بها. وتبادلنا الهدايا السخيفة من غير ما مناسبة. كنت أذهب إلى منزلها ليلاً وأترك لها رسالة غرامية أعلقهـا خلـف زجـاج نافـذتها المطلـة علـى الـشارع، كنت أفعل ذلك بسرية تامة، ولكنها لم تكن تـرد علـى رسـائلي، بـل تكتفـي بالكتابة على الوجه الآخر من الورقة "أحسنت.. يسعدني أنك ما زلـت تكتـب لـي!" لـم يكـن والـدي علـى علـم بهـذه العلاقـة حتـى رأى تلـك اللوحـة الأبلاكاشية التي حفرت عليها اسمها كاملاً، فأوسـعني ضـرباً لأنـه رأى فـي ذلك انحرافاً عن الخط الذي رسمه لي طوال حياته، وأردف "لن أسمح لـك أن تفسد علاقتي بأصدقائي"

كانت هيمنة والدي الاقتصادية هي من تفرض هيبته على البيت ، وحتى على النطاق الأسري. ففي الوقت الذي كان أبناء أورفل القاطنين في كوينكا يعانون فيها من جميع أنواع الهوان الاجتماعي والأسري، كان والدي يلقى حظوته الأكيدة في العائلة الأبوية ذات التقاليد الصارمة، لا سيما من لدن سوليداد فيدل ذات الشفاه الرطبة، إذ كانت تخصه برسائل على غير عادة الأمهات النوركيات. وكان والدي شديد الاعتزاز بهذه الحظوة، وربما ساعده ذلك على وضع صورة افتراضية لعلاقاته بأخوته الأصغر سناً. فكان يفترض فيهم الطاعة العمياء والاحترام منقطع النظير، لدرجة أنه كان يتدخل في تسمية أبناء أخوته الذكور والإناث على حدٍ سواء. أعجبني سلوك العمة تيرا أورفل المتمرد الذكي حين رفضت تسمية ابنها البكر جرسفندور – الذي لدغته الأفعى السامة في كوينكا - باسم كاسبر الذي اختاره لها، غير أنها سجلته باسم جرسفندور في مكتب سجلات المواليد وفي حفل التعميد الكنائسي(11) غير أنهم ظلوا ينادونه باسم كاسبر إرضاءً له حتى ولدت أنا فأسماني بهذا الاسم، ويبدو أنه كان لسببٍ ما مغرماً بهذا الاسم.

على ضوء فانوس زيتي قديم لم يكن معداً للاستعمالات المفاجئة، كتبت رسالتي التاريخية إلى أماتا دادوريس في الليلة التي انقطع فيها التيار الكهربائي على إثر عاصفة رعدية. جاء في تلك الرسالة:
"حبيبي، وقطتي المدللة أماتا.. أكتب إليك في هذا الجو الرطب، ولا أدري أية رغبة تلك التي ربطت بينك وبين هذا الجو الماطر. ولكنني أحسست برغبة غامرة في الكتابة إليك، حتى وإنني لا أعلم كيف سوف أوصلها إليك.
لا بأس فما يهمني أنني أغرق في شعوري بالدنو منك لحظات الكتابة.
ما تزال لدي رغبة ملحة في أن أؤكد على حبي لك في كل مرة، دون أن يخدش ذلك من يقينك بهذا الأمر. ولو تدرين كم أشتهي الجلوس بين يديك

كانـت تـضايقني اهتمامـات أماتـا غيـر المنقطعـة بتربيـة النباتـات العطريـة، وانشغالها بذلك عني، غير أنها كانـت تؤكـد لـي بأنهـا تحبنـي كلمـا أحـست بـضجري مـن اهتماماتهـا الفارغـة، وتـصر علـى إخبـاري بـأن مـا يمنعهـا عـن الإفصاح لي بهذا الحـب أنهـا أنثـى تحاصرها التقاليـد الأخلاقيـة. ربمـا كانـت محقة فيما تقول، فلم تكن من عادة الفتيات الإفـصاح عـن مـشاعرهن بـذات السهولة والجرأة التي يفعلها الفتيان. كانت هوامش الحريـة المتاحـة للـذكور تنعكس سلباً في هذه النواحي تحديداً. بعضهن كن يجـدن فـي كـونهن إناثـاً ملاذاً جيداً للتنصل مـن ورطـة العلانيـة. فكـان يتوجـب علينـا أن نعتمـد علـى تفسير مـا يـصدر مـنهن مـن ابتـسامات وإيمـاءات، مـا كـان يجعـل الأمـر أكثـر صعوبة.

الحب البرجوازي لا يستمر طويلاً، ولكن لم تكن ثمة حلول أو بدائل، وهـذا مـا ساعد علاقتنا أن تعيش أكثر من عمرها الافتراضي. ولكنني لا أنـسى لأماتـا أنهـا كانـت المحفـز لـي للكتابـة، ومـا زالـت تحـتفظ برسـائلي فـي صـندوقها السري الصغير. وبذا فإن علاقتي بها كانـت علاقـة براجماتيـة لـيس إلا، فقـد كنت بحاجة إلى أن تكون لي ملهمـة، كمـا كانـت بحاجـة إلـى أن تـستـشعر أنوثتها من خلال ما أرسله لها من قصائد وأشعار مسروقة. قلت في نفـسي

في العام 1994م كنت استعد لدخول الجامعة، وكانت تلك أهم لحظات حياتي. كنت أحمل معي بقايا علاقة برجوازية فاشلة، وأسئلة كثيرة أبحث عن إجاباتها وشخصية أطمح بجدية في تحديد ملامحها، وعاطفة لم تعرف بعد مسارها الطبيعي، وعداء أسري اكتسبته من خلال شراستي في المطالبة بنيل الحرية التي أريد. ساعدني على دخول الجامعة أمران ليس لهما أي منحىً أكاديمي، أولهما أنني كنت أنفذ رغبة والدي الذي طمح أن يتباهى بي أمام أصدقائه، وربما أراد أن يثبت للرب أنه رجل قائم بواجباته على أكمل وجه. وثانيهما تشجيع دادوريس لي والذي اعتبرته بدافع الرغبة في التعويض، فقد كان متألماً من كون ابنه الأكبر "انطونيو" فاشلاً في دراسته.

كانت علاقتي بدادوريس تزداد عمقاً كلما قرأت لسارتر وعرفت معنى أن يختزل آلامه وإخفاقاته في نكتة، ويظل يضحك عليها وكأنه يضحك من نفسه. أن تقرأ في الضحكات حزناً من النوع الذي يحاول أن يخفيه، وأن تتذوق طعم الملح في ابتساماته المنهكة. كان دادوريس من النوع الذي يجتر حزنه بمفرده، ويبدو للآخرين قوياً حكيماً بينما يذوب ضعفاً بين يدي من يشعر بالثقة أمامهم. لم يكلفني فيما بعد عناء أن أسأله عن سبب حزنه، فوجدته يحكي لي قصته مع زوجته اندريا سواريه وكيف أن الرب لم يكتف

في الجامعة، تعرفت على "جهاد عواملة" العربي القادم إلى إسبانيا مهاجراً هو وعائلته. لم أشأ أن أتعرف عليه، فقد كانت لي تحفظات لا حصر لها على مصادقة ذوي الأصول العربية. ورغم أنه كان يتكلم الإسبانية بطلاقة لا توحي بجذوره العرقية، إلا أن اسمه كان كفيلاً بأن يخلق لدي ولدى البعض الآخر نوعاً من الانكماشية تجاهه هذا علاوة على ملامحه العربية التي لا يخطئها أحد. كان هذا العربي منشرحاً ومجداً أكثر مما يجب. وكان ذلك سبب آخر يدعوني إلى تجنبه، فلم يكن يعجبني أولئك المنهمكون في الدراسة. بالإضافة إلى إعجاب أماتا به، لطالما كانت مغرمة بأصحاب اللحى الخفيفة، الأمر الذي جعلني استبعد أية مبادئ لعلاقة معه فيما بعد. لم تكن بدافع غيرة بقدر ما كانت سياسة أتجنب بها الاحتكاك بها ولو بالمصادفة.

في الجامعة، كنت أحس براحة أكبر من تلك التي أجدها في البيت. هنا يمكنني أن أقول وأن أفعل ما أريد وقتما أريد. فليس كلهم يعرفون تاريخ عائلتي الدينية. ونجحت في أن أحجّم علاقتي بأماتا إلى الحد الذي جعلني أبصر غيرها وأن أعيش حياة طبيعية ترضيني. كان همي آنذاك أن أبحث عن نفسي التي كنت لم أجد بعد متسعاً من الوقت والكفاءة للبحث عنها في دهاليز سيطرة والدي الأبوية المظلمة، والتقاليد النوركية المتحجّرة. كانت إسبانيا ذلك الوقت بدأت في اتجاهها نحو الاهتمام بالسياحة بعد النجاح

في واحدة مـن تلـك الـرحلات العلميـة التـي نظمتها الجامعـة، لـم يعجبنـي اختيار إدارة الجامعة لذلك العربـي لأن يكـون المرشـد المـساعد للبروفيـسور خافيير ديلانو. كان نبوغه واطلاعه العميق بالتاريخ والآثـار الـسبب فـي ذلـك، ولكنني لم أكن لاستسيغ إرشاداته الآمرة في كـل مـرة. عنـدما وصـلنا إلـى مدريد العاصمة، توقفت الحافلـة أمـام إحـدى الفنـادق المطلـة علـى سـاحة البلدية. كانـت تلـك الزيـارة الأولـى لـي للعاصـمة الإسـبانية، فطالمـا بقيـت متنقلاً بين الأرياف والقرى النائية. ورغم أنه قالها بابتسامة ودودة ، غيـر أنـي قرأتها كرسالة تهديدية سافرة "خذوا قسطكم من الراحـة؛ وإلا فلـن تتمكنـوا من الاسـتمتاع بالجولة السـياحية مسـاءً" وتوجه جهاد بعدها مباشـرة إلى بهو الفندق. كنت أحمل عملة معدنية لا قيمة لها، أمسكها بين أصـابعي أقـذفها بضربة من ظاهر إبهامي لتقفـز وتـسقط فـي كفـي مـرة أخـرى، بينمـا كنـت أتمشى على مهل من مدخل الفندق إلى حيث الزاوية التـي وضعت عليهـا الكتب والأدلة السياحية للمدينة. لم يعجبني إحساس السائح بينما أنـا فـي بلدي، بينما كانت الوفود الأجنبية مـن سـيّاح مكـسيكيين وفرنـسيين تنتـشر في بهو الفندق ذاته. شعرت بامتياز وحيد، سـرعان مـا اختفـى عنـدما تقـدّم نحـو صـبي يرتـدي بذلـة مخـدّمي الفنـدق، وأعطـاني شـارة مكتـوب عليهـا بالإنكليزية "سائح" لأعلقها على رقبتي.

مساءً ، بدأنا جولتنا بزيارة لقصر الشوق، ثم متحف البرادو، ثم انتهينا إلى حيث ساحة ثيبيليس بنافورة مياهها الرائعة. ما أفسد عليّ روعة الاستمتاع بالرذاذ البارد المتناثر منها، تقافز ذلك العربي اللعين وهو يشير بإصبعه السبّابة إلى تمثال في المنتصف لسيدة في عربة إغريقية يجرها ثلاثة أسود "هذا تمثال للملكة جوليا دومتا أشهر المليكات الرومانيات، وهي زوجة الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيريوس. تقول كتب التاريخ أن لها أصولاً عربية، ويعتقد أنها سورية في الأصل" لم تعجبني تلك التلميحات العنصرية منه، فقررت أن أوقفه عند حدّه "قرأت فيما مضى عن ملكة رومانية - من أصول عربية أيضاً - أنها وضعت السم لزوجها الإمبراطور لتظفر بحب عشيقها أحد حراس القصر، ما دعاها لذلك أن الإمبراطور المغدور كان مصاباً بالعجز الجنسي" قلتها وأنا غير متأكد من دقة تلك المعلومات، غير أنني كانت لي رغبة في إهانته. عندها وقف متحيراً، كأنه لم يفهم مغزى الرسالة، وهزّ كتفيه قبل أن يقول: "لم أسمع بهذا من قبل. ربما كانت ملكة أخرى غير هذه!" وأشار إلى التمثال مرة أخرى.

كانت أماتا دادوريس، تجلس متكئة على سلّة خزفية وضعت فيها ساندويتشات المارتديلا ومربى الكرز، وشطائر التفاح وبعض الأكواب البلاستيكية المعدّة للاستخدام لمرة واحدة، ابتسمت في وجهي وفي عينيها بريق لشعورٍ متأسٍ تجاهي. وكأنها أحسّت أن ما فعلته لم يكن إلا بدافع الغيرة. فابتسمت لها بالمقابل، ثم قهقهتُ بصوتٍ عالٍ. عندها شعر جهاد بأنني أضحك عليه، بدا ذلك واضحاً من الحمرة التي اعتلت وجهه الأصهب. ثلاثتنا لم يفهم من بعضنا شيئاً ، وكنّا على اتصال تيليباسي(12) على نحو غريب. كان جهاد قد بدأ في الانتباه لما أفعله وأقوله منذ تلك القهقهة المستفزة. أرهقتني جداً محاولاتي الفاشلة في أن أبدو طبيعياً إذ

أمضينا في ساحة ثيبيليس وقتاً مقدراً، حتى مللت وبدأت أتساءل سراً "متى يعلن مرشد الرحلة عن موعد عودتنا إلى الفندق؟" ثم نهض الدكتور ديلانو، وأطلق نظرة متفحصة وسريعة على الموجودين قبل أن يعلن "هيا .. حان وقت العودة، تأكدوا بأنكم لم تنسوا شيئاً" كنت أشعر بأن أماتا دادوريس وجهاد يخترقاني بنظراتهما الساخرة، وربما كان كل منا يشعر بالشيء ذاته تجاه الآخرين. لا أدري .. ولكن ذلك الشعور فيما بعد بدا غير مزعجٍ على الإطلاق.

ليلاً .. وبينما أُشعل سيجارة كنت قد بللتها مسبقاً بالكولونيا حتى نشفت، طرق أحدهم الباب بصوتٍ خافت، حتى ظننت أنه كان يُخيّل إليّ. ولكنه كان أعلى درجةً في المرة الثانية. عندما فتحت الباب وجدت ماربيلا ريكولاس الغجرية تقف خائفة ومرتجفة، وكأنها تقف في جو ممطر دون مظلة. كانت ثمة نظرات غريبة في عينيها لم أستطع أن أجد لهما تفسيراً سريعاً. وقبل أن أكمل التحية الحذرة، دفعت بي إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها. "هل أنتِ على ما يرام؟ هل هنالك شخص يطاردك ماربيلا؟" ورغم ما أبديته من بدائية ساذجة، إلا أنني لم أشك للحظة أنني سوف أنعم بليلة جنسية ساخنة، مع فتاة جاءتني على طبق من ذهب. وفجأة تبدد هذا الشعور عندما أجهشت بالبكاء عرفت أن تخميني لم يكن صحيحاً وأن الأمر متعلق برغبتها في الإفصاح عن سرٍ ما. كانت ماربيلا الغجرية قليلة الكلام، تملك

ماربيلا بايومباس فتاة غجرية قادمة من المكسيك. كانت واحدة من ثمانية أطفال ينتمون لعائلة فقيرة تعيش على جمع القوالب الكرتونية وقوارير المشروبات الغازية الفارغة وإعادتها إلى مصادر تصنيعها لتعيد تدويرها مرة أخرى، بينما كانت أمها تعمل خادمة في بيت أسرة برازيلية متوسطة الحال. كانت ماربيلا في إجازة المدرسة تعمل غاسلة ملابس لدى بعض الأسر في الحي ذاته الذي تعيش فيه. وظلت الأسرة تكابد ظروف الحياة الصعبة دون أن تستشعر بأنها سوف تواجه وضعاً أصعب من هذا، حتى توفي والدها بروماتيزم في القلب. كانت ماربيلا التي اختارت طرف السرير لتجلس عليه بغير ارتياح، تنظر إليّ بعينين لم استطع قراءتهما بمنأىً عن القصة التي كانت تسردها عليّ. وجاهدت كثيراً في أن أكون أكثر إنصاتاً وأن أبدي قدراً من الاهتمام بما تقوله. إياك أن تتجاهل كلام فتاة لا سيما عندما تفضي لك بسر! قد لا تكون بحاجة لمساعدتك فعلاً، ولكن أقصى ما تتمناه أو تتوقعه بالضرورة أن تنصت لها فقط.

في طورٍ متقدم من الحوار، عرفت من ماربيلا أن أمها قد اضطرت – بعد وفاة زوجها بأكثر من عام - لبيع أبنائها الواحد تلو الآخر لأسر ثرية كانت بحاجة

لم تكد ماربيلا تبلغ الحادية عشر من عمرها حتى بدأت تعاني من تقيحات مهبلية جعل سيدها يدخلها مشفىً تقليدي في ضواحي مدريد، وحتى بعد أن خرجت منه ظل يغتصبها دون أن تدري زوجته، حتى وافق يوم خصبها وحملت منه فأجبرها على إجهاضه. قلت لها "ولماذا لم تخبري زوجته بذلك، أنسيتِ أنكِ ابنتها؟" فقالت بأسى "وماذا كان عساها أن تفعل؟ يمكنهما بسهولة أن يتبنيا طفلاً آخر، ويودعاني الرصيف المقابل. أنسيت أنت أنهما اشترياني بثمن؟" شعرت بأنني بحاجة ماسة لاحتضانها والبكاء معها، ولكنني تخشبت مكاني ولم أفعل. كنت أخشى أن تؤول ذلك على غير مقصده. كانت فكرة أن تبيع الأسرة أبنائها فكرة لا تصدق بالنسبة إليّ، ولكن من لا يعرف الفقر كمن لا يعرف القراءة!

ما زاد حيرتي أكثر أنها كانت ما تزال تعيش معهما، ولكن حيرتي انتهت باحترام بالغ، عندما عرفت أنها مضطرة لذلك حتى تكمل دراستها وأنهما من يدفعان لها رسومها الجامعة. ختمت ماربيلا حديثها بجملة اعتبرتها أشد مأساوية "لقد تلقيت اتصالاً هاتفياً هذا اليوم من سيدي .. وشعرت بغصة قوية. لا تظن أنني هنا من أجل استدرار العطف، ولكنني شعرت بك شخصاً جديراً بالثقة، فلا تخن ثقتي أبداً" وخرجت وهي تحمل في عينيها ذات النظرات الغريبة التي دخلت بها.

عندما غادرت ماربيلا . شعرت بهدوء مخيف، وبرودة في غير موسمها تسري في أطرافي حتى تدثرت بغطاء السرير كليةً وتركت فقط رأسي بادياً. بدأت استرجع ما قالته لي عن أخوتها الذين بيعوا الواحد تلو الآخر، وحاولت أن أعايش تلك المحنة الإنسانية فلم أستطع أن أتصور ذلك. وأحسست معنى أن يبيع المرء قطعةً من جسده حتى يأكل، ويأكل وهو يتألم! فبكيت بحرقة شديدة قبل أن أتذكر كلام إكسمن دو ريجيلو عندما كان يقول لي في غرفته رديئة التهوية "هذا العالم صراع أضداد يا كاسبر: أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، قاهرين ومقهورين ، متعلمين وجهلاء. ولكننا حتى لا نملك أن نختار لأنفسنا المكان المناسب." كان ذلك قبل مراحل بعيدة جداً عن قراءتي لكارل ماركس، وتساءلت عما إذا كان دو ريجيلو ماركسياً.

آمنت بقراءات كارل ماركس لفترات طويلة، وحتى الآن أرى أنه كان الأثقب بصيرة في قراءة التاريخ وحركته، غير أني في مرحلةٍ ما ظننت أن ماركس أخطأ التقدير في جانبٍ ما. فالحياة ليست صراع طبقات، بقدر ما هي صراع قيم، حتى وإن كانت هذه الطبقات هي المنتجة لهذه القيم، ولكن القيمة

في اليوم التالي، وبينما وقفت مجموعة من طيور أبو الحناء على النافذة، كانت ثمة خيوط ناصعة البياض لأشعة الشمس تتسلل عابرةً رذاذ الذرات العالقة والتي تبدو في مجهر الأشعة وكأنها ذرات غبار تتراقص ببطء غير مرتب ونشاز مقارنة بألحان أبو الحناء، وكأنها يرقات الضوء تتيه من مصدرها في الفراغ قبل أن تنتحر على شيءٍ ما دون أن تختار مكان انتحارها ولا طريقته. ومن الخارج كان صوت صهيل الخيول وهي تجر العربات ، وصوت امرأة وهي تنادي على بائع الخبز، وأحاديث ضاحكة لشبان مارين، ورنين جرس دراجة يبدو أنها كانت مسرعة، وضجيج مختلط وواضح التفاصيل. كان كل ذلك إشارة إلى أننا قرب منتصف النهار. غير أن أحداً لم يوقظني للجولة النهارية. قلت في سري "أتمنى ألا أرى ماربيلا اليوم" عندما يفضي أحدهم إليك بسرٍ ما، تتغير معاملتك معه بطريقةٍ ما

في بهو الفندق، كان الجميع قد بدؤوا في التجمّع كسرب إوز مهاجر. كانوا يتجمعون في شكل مجموعات مسبقة الترتيب، حتى أنني بدأت أعرف أعضاء كل مجموعة منفردة. كانت ماربيلا تجلس في صالة الطعام تتناول قهوة الصباح، فتوجهت إليها وجلست حتى دون استئذان. شعرت بارتياحها الخجول لوجودي بجوارها بينما كانت تركز نظراتها على فنجان قهوتها وهي

قبل أن نصعد إلى الحافلة، كان مشهد جهاد وهو يضع كفّه على ظهر أماتا ليساعدها على صعود الحافلة، مشهداً أتوكيتياً مهذباً بالنسبة للجميع، غير أنه كان بالنسبة لي كطعنة صدرية بسكينٍ ساخن. حاولت أن أخفي ذلك الإحساس عن الجميع، ونجحت إلا عن ماربيلا التي أحست بذلك فوراً ربما لأنها كانت الأكثر مراقبة لي. إذ ذاك – وبطريقة هزلية لا تخلو من طرافة - همست في أذني "لا بأس .. يمكنك أن تساعدني على الصعود، إذا أحببت" ابتسمت في وجهها بهدوء ، كانت ابتسامة ممتنة أكثر منها موافقة.

في طريقنا إلى أتوشا(13) جنوباً، مررنا بشارع الغرنادة ذو الطابع العربي الواضح، لا سيما ملامح برج سان بيدرو العتيق. كنت في كل مرة أتعجب كيف وصل العرب بجمالهم وخيولهم الهزيلة إلى هنا قادمين من صحراء بلادهم الحارقة. لم أكن لأصدق أن ثلةً من الرعاة البدو قد تكون لديهم نوايا استعمارية إلى هذا الحد، وربما حدا بي هذا التعجب إلى أن أقرأ المزيد عنهم وعن ديانتهم التي كانت قد نالت قسطاً وافراً من اهتمامي، لا سيما وقد اشتمل كتابهم المقدس على ذكرٍ لليسوع. كنت أبحث عن ترجمة إسبانية لكتاب العرب المقدس آملاً في أن أجد إجابة لتساؤلاتي أو هرطقاتي القديمة، ولكنني لم أجد في أرتكاتا ولم اجتهد في البحث إلا بعد

بعد زيارة قصيرة وسريعة لمحطة أتوشا، توجهنا إلى الريتيرو لتناول الإفطار هناك، كان إفطاراً متأخراً، وقد صادف وجودنا إقامة عروض استعراضية لبعض الفرق الشعبية، والتي عرفنا فيما بعد أنها تقام كل يوم أحد في ذات المكان. وبينما انشغل الآخرون بمشاهدة العروض البهلونية التي كان يؤديها أقزام مكتنزون، كنت كدارسي الحياة الفطرية، أراقب ماربيلا ريكولاس عن كثب. كنت أتسائل هل كانت هذه الفتاة الغجرية صادقة في روايتها؟ ولماذا اختارتني أنا بالذات؟ ولماذا ذلك التوقيت بالتحديد. ولماذا لم تبد رغبة في الحديث معي بعدها؟ هل تراها تتوقع مني أن أفعل ذلك؟ الفتيات يحببن ذلك، ولكنها بالأمس القريب فقط كسرت هذه القاعدة! هل تراها أعادت إصلاح الكسر؟ كانت تربط في شعرها منديلاً أحمراً منقّطاً بنقط بيضاء صغيرة تماماً كما تفعل النساء الغجريات، في أواسط التسعينيات أصبح هذا النوع من المناديل الغجرية صرعة منتشرة لا سيما بين الفتيات الجامعيات. وكانت ترتدي بنطالاً من الجينز الضيّق الذي يبهت عند الركبتين، وقميصاً قطنياً لم استطع أن أحدد لونه على وجه التحديد، غير أنه كان يحمل نقشاً في مقدمته باللغة الإنكليزية "وجهة نظر أخرى." وبينما كنت أبحث عن مفصلٍ ضعيف أكسر عليه طوق الحذر المفروض علينا، مرّ أحدهم أمامي وهو يرمي بنظرة متأرجحة بيننا "لقد أحسنت الاختيار، إنها فتاة مثيرة حقاً، لا تتردد فيمكنها أن تمنحك الراحة في أي مكان تشاء" كنت مندهشاً للجرأة الواثقة التي تكلم بها ذلك الشاب. ولكنني اكتشفت فيما بعد أنه قد مارس معها الجنس لمرات، وكذلك فعل الكثيرون، وهذا لم يجعلني أثق بأنها كانت تكذب في قصتها التي حكتها لي أبداً.

أشارت إحدى الفتيات على البروفيسور خافيير زيارة ساحة بلاثا مايور فوافق على الفور. وهناك، وبينما كنت ما أزال أدرس احتمالات ماربيلا بين كونها ضحية لفقر أرغمها على بيع جسدها كما أرغم أمها لبيع أطفالها من قبل، وبين كونها داعرة محترفة لم تشأ حتى أن تقايض على جسدها بمال، ربّت أحدهم على كتفي بلطف، وعندما التفت وجدته جهاد عوالمة، مبتسماً وهو يطلب الإذن بالجلوس. كنت أظنه يريد تفسير الذي بينه وبين أماتا بطريقة ماكرة، كما هي عادة العرب دائماً، غير أنه فاجأني بقوله "هل تقبل صداقتي إن عرفت أنني أحبك؟" وحتى قبل أن آذن له، وجدته قد فرد صفحة من جريدة يومية قديمة، وجلس.

لقد كان كالصدأ الذي لا تستطيع منعه من الزحف على قطعة معدنية رطبة، فقد تمدد عنوة رغماً عني، ولم أكن أشأ أن أطوّر علاقتي به. قلت لنفسي "ربما بعثه إليك الرب ليجيب عن تساؤلاتك المعلّقة" عرفت أنه لا يتوجب عليّ الخوض في أحاديث دينية منذ الجلسة الأولى، مما عنى لي أن أتحمله في البداية حتى تحين الفرصة المناسبة. لم تكن ثمة حجة منطقية لعدائي له غير إحساسي تجاهه بأنه كان مستعمري في حقبةٍ ما. كانت تلك رجعية بائنة لم استطع معالجتها، وعنصرية متخفية خلف ستار وطني سخيف. وما أثار تعجبني أنه كان يشعر بذلك، ولم يبدي أي استياء حيال ذلك. تعلمت من علاقتي معه بعد تحسنها أنك حين تبغض شخصاً تبغض كل ما يتعلق به بلامنطقية وتصبح هذه اللامنطقية سبباً منطقياً لك أنت وحدك، فقط أنت لا تعرف اللحظة التي توافق انفتاح صمامٍ ما في قلبك

تكلمنا عن أشياء كثيرة، ودون شعورٍ مني وجدتني منساقاً لما يقول. كان - عكس ما توقعت - مثقفاً، عارفاً بتلك الهوة الثقافية بين مجتمعاتنا وأسبابها. وتولدت لدي رغبة جامحة في معرفة شيء ما عن البلدان العربية خلاف ما قرأت عنها في صغري، لا سيما في حقبة ما بعد الانحسار الاستعماري. حكى لي عن دمشق وأوغاريت وأبجديتها الأم وعن تاريخ رقصة الدبكة وأنواعها، وتمنيت ساعاتها أن نطبّقها، بل وتخيّلت نفسي وأنا أرقصها كما ولو كانت سهلة بالنسبة لي. وحكي لي عن مملكة ماري الغارقة تحت تلّة الحريري، وإيبلا المدفونة تحت تلّة مرديخ، ومعبد تلال براك وحبوبة، وآرام. وحكى لي عن تاريخها كما لو أنه يحكي لي سيرته الذاتية. كانت ثمة لمعة جذابة في عينيه الماكرتين، اللتان كانتا مصابتين بمتلازمة موتّرة، غير أني لم أستطع إلا أن استمع له، فلقد كان بي ولع بالتاريخ غير مسبوق. ثم أنه توقف فجأة ليقول في تهذيب غير مصطنع "عذراً .. عليّ أن أذهب لأصلي"

الفصل الخامس (الأخير):

إنسان .. أم مسخ؟
- كارسيس التي جاءت متأخرة -

أحاديث النسوة الأرستقراطيات بعد مغادرة الرجال للصيد، لها طابع خاص. رنين اصطكاك الفناجين الخزفية ودقات بندول الساعة الجدارية العملاقة، وضعية الكراسي والإضاءة كلها تكثيف لخصوصية الحديث الذي لا يخلو من

أكثر ما يفسد هذا العالم، النظام والفوضى، هذا ما كان يميّز مدريد عن ضواحيها التي كانت ما تزال تعيش تحت خطوط الفقر ببدائية مريحة. كان الجد أورفل، قد نشر روايته "ما وراء النهر" بعد أن بلغ به اليأس مبلغه. وافقت إحدى دور النشر المغمورة على نشر وتوزيع روايته بعد أن أرغمته على التنازل عن أرباحه. غير أنه اشترط أن توضع صورته على غلاف الرواية وليس خلفه كما كان متعارفاً عليه. بعد مرور عام نفذت النسخ الموزعة من رفوف المكتبات، وطبعت الدار نسخة محدّثة للرواية وبدأت شهرة أورفل بودن في الازدياد، وما أن وصلت أولى نسخ روايته المحدّثة مدريد حتى توفي. كان ذلك في العام 1996 لم أشعر لوفاته بفقد كبير كما شعرت لوفاة مانويل إميليو جدي لأمي الذي كان قد توفي قبله بعامين. كانت ثمة أعوام مرت على الأورفليين لم تشهد أحداثاً غير موت كبار السن. وكانت النساء في كل مرّة يحتفين بطقوسهن عند كل عزاء. تذكرت ذلك القسيس جاد الملامح ذو اللحية البيضاء الذي رأيته في كوينكا، وتوقعت أن يصبح والدي مثله ذات يوم.

عندما وقعت عيني على رواية أورفل على إحدى رفوف مكتبة صغيرة في شارع تاتادورسيا، شعرت بالفخر للحظات، ثم حملت الكتاب، وأنا أنوي أن أخبر صاحب المكتبة بأن مؤلف هذا الكتاب هو جدي. غير أنني لم أفعل عندما عرفت أن سعر الكتاب أقل من سعر ربطة عنق فرنسية. فيما بعد ظلت الرواية بطريقةٍ ما مفتاحاً لحياته الخاصة. إذ يذكر في روايته قصة بوسويل كاستيلّو اللقيط الذي قتل عشيقته عندما حملت منه سفاحاً، وفرّ إلى صومعة غير مأهولة، وظلت لعنات الخطيئة تطارده حتى أوحت له المشيئة أن يعبر نهراً ذكر أنه نهر مسحور، فخرج إلى الضفة الأخرى وقد مُسح نصفه السفلي. ولم يزل كذلك حتى تمثلت له السيدة العذراء وفي يدها وعاء به دم لا رائحة له، وأمرته بشرب ما تيسر منه والاغتسال بما يتبقى، وعندها مسحت على صدره ودعت له بالسكينة ، فسكن! ويواصل في روايته حتى تأتي الحقبة التي يتزوج فيها كاستيلّو من سيدة يقال أنها من سلالة الأب يواقيم الفلوري صاحب النبوءة المشهورة(15) لذا فقد انتقل كاستيلّو بزوجته إلى إسبانيا أملاً في أن ينجبا ذلك البطل المسيحي المنتظر.

أصر العم زينون أورفل على سحب الرواية من الأسواق حتى دون أن يستشير أخوته، غير أن صاحب دار النشر لم يكن ليوافق على ذلك لا سيما وأن الطلب على الرواية أصبح متزايداً، وبلغ سعر الكتاب أكثر من 40 يورو ذلك الوقت. لم أعرف سر تهافت الناس على الرواية رغم أنها كانت تتناول أحداثاً ساذجة بطريقة لا تخلو من البساطة المفرطة. لقد أصبح أورفل من أشهر الرواة الإسبانيين بعد وفاته، وتم تكريمه في الذكرى الأولى لوفاته وحضر أبي التكريم متأبطاً يد أمي كأرستقراطي محدث. حاول أن يبدو كنبيلٍ حزين،

مرت السنوات الثلاث الأولى دون أن تكون لدي أي علاقات عاطفية صادقة، فيما عدا تلك العلاقة الحذرة التي كنت أمارسها بين الفينة والأخرى مع كارسيس ريكو ماندل. فتاة بطعم الكرز ورائحة البرتقال. فتاة تحمل من الصفاء ما يذكرني بنهر كويربو. كانت الفتاة الوحيدة التي تسللت إلى قلبي بهدوء لم استشعره إلا عندما طلبت استشارتي في علاقة ناشئة في أطوارها الأولى بينها وبين شاب يدعى ألبيرتو جيوفاني. كانت كارسيس من تلك الفتيات اللواتي لا يبتذلن الوقت في الكلام عن ما لا يفيد. وعندما طلبت مقابلتي عرفت أن ثمة أمراً خطيراً يسترعي الاهتمام. ولسببٍ ما أحزنني معرفة ذلك. كثيراً ما نويت أن أصارحها بما أحمله تجاهها من عاطفة، غير أن ما منعني من ذلك هو خوفي الذي لم أكن أملك سيطرة عليه. فكنت أراها فتاة من نوعٍ آخر، نوع لا يمكنك أن تتصور وجوده إلا في محميات إنسانية.

في واحدة من جلساتنا النادرة، حانت لي الفرصة لأشهر بغضائي للسلالات العربية بوضوح عندما كان "جهاد" يتحد ث عن ديانته التي كانت واحدة من أسباب كراهيتي له. فقد كانت كراهيتي التاريخية للعرب ذات جذور تعود إلى ما قرأته عنهم منذ العصور الوسطى عندما شاع في الأوساط المسيحية ظهور دين يستقي طقوسه وتعاليمه من كتابات العهدين القديم والجديد بهرطقة توسم الرب يسوع بما ليس فيه وتحارب المسيحية، وتحارب الثالوث الأعظم المقدّس. كهذا بدأ قساوسة ورجال الدين البيزنطيون الذين سوّقوا لهذه الفكرة لقرون طويلة خطاباتهم لمجمعات الكنائس والأديرة في أوروبا على وجه التحديد. والتاريخ لا يغفل أبداً. لقد كان هذا الدين الجديد بمثابة الكابوس المفزع لرجالات الدين والبابوات. ولكن الدور الأكبر الذي ساعد على نقل هذه التحذيرات إلينا في الغرب كانت حركة المؤرخين الذي وصفوا لنا بشاعة هذا الدين وأتباعه، كما لم يستطع أحد أن يصوّره. في كتابٍ لثيوفانس يحتفظ به والدي تحدث عن أتباع هذا الدين ووصفهم بأنهم مصاصو دماء يقدّسون القتل بأمرٍ من نبيهم الذي أوعز إليهم أن الجنة لمن يقتل مسيحياً أو وثنياً. وكنت وأنا أتعجب لهذا الفكر - الذي بزغ فجأة في أقاصي الأرض - أن تلاقي هذا الانتشار رغم همجيته ودمويته، لا سيما وأنه ظهر بدون منازع في تلك الحقبة من الزمن. ولكنني قلت في نفسي "هؤلاء

تذكرت كلام الجدة يواماريز روجيليو – زوجة أورفل الثانية – عن الأورفليين وورعهم الأربعيني . وكنت أخمن دائماً تلك النقطة التي تجعلني أنقلب من مسيحي مهرطق إلى كاثوليكيّ متديّن، ولم تكن ثمة أية إشارات لذلك. ساعدني على نبذ ما تبقى من مخلفات أرتكاتا البائدة أن مدريد كانت نافذة منفتحة على العالم، وكنت أرى يهوداً بقبعاتهم السوداء الصغيرة في منتصف رؤوسهم – دون أن أعلم سر ثباتها دون أن تقع – وهم يعبرون شوارع العاصمة غير خائفين ولا متوجسين. تنهدت بعمق وأنا أسبّح "فلتتمجّد أيها الرب في الأعالي!"

عشت أرجوحة فكرية من النوع المرهق، حيث أن عدائي لهذا الدين البربري كان عداءً مقدّساً، ولكنني في السنة الأخيرة لي في مدريد وقعت في يدي بعض المخطوطات والمنشورات الدينية في مكتبة الجامعة عندما كنت أستعد لجمع مراجع مفيدة لرسالة التخرّج. كانت تلك المخطوطات تتحدث عن الخطبة التي ألقاها البابا أربان الثاني في كليرمونت والتي كان يحرّض فيها المسيحيين على عداء المسلمين الذين نعتهم بأنهم "أبناء عاهرات" وأكد في المقابل على حصولهم على مكافأة من الرب لكل من يقتل مسلماً. عندها توقفت عن القراءة وتساءلت "عن أي رب يتكلمون؟" هل يكون الرب يداً يبطش بها كل من استساغ القتل؟ وإلى جانب من يقف هذا الرب؟ كيف يهب جنته للبرابرة مقابل قتلنا، ويكافئنا بذات الجنة مقابل ذات

لم تعجبني ابتسامات جهاد الساخرة ، وأيقنت أنني سوف لن أتمالك أعصابي إذا مضت دقيقة كاملة وأنا ما أزال أمامه، فانصرفت على الفور. كان ذلك الشيء الذي لا أعرفه بدأ يتحرك داخلي، وعرفت أنه لم يكن من الحكمة الانصراف دون أن أسمع منه. في طريق عودتي رأيت كارسيس الحسناء، وهي تقف مع رفيقاتها اللواتي كنّ لا تعجبهن طريقتي التي أتكلم بها، وكنّ أحياناً يعايرنني بالبداوة والبربرية. هي الفتاة الوحيدة التي تجعلك بطريقة غير منطقية تخرج من حالة شعورية إلى حالة شعورية متناقضة تماماً. تشعر أمامها بأنك لا يجب أن تكذب، ولا يجدر بك إلا أن تبتسم. كان ذلك آخر مرة أراها فيها. فقد عدت إلى أرتكاتا بعد تخرجي دون أن أودع أحداً. حملتها في قلبي وأنا سعيد بأن آخر صورة لها في ذاكرتي كانت وهي مبتسمة. كم كانت تأسرني ابتسامتها الوادعة! تمنيت بطريقةٍ ما أن أخطرها بما تعنيه لي حتى وإن لم نكن سنلتقي بعدها، تمنيت أن يغيّر التاريخ والزمان رأيهما فيعودان إلى الوراء بضعة أشهر فقط، ولكنني الآن هنا، أمام مدفئة حجرية تتعالى فيها طقطقات الخشب المحروق ورائحة الكازولين والفحم الأبيض تملئ خياشيمي، وأنا أقرأ في الإصحاح الثالث مقاطع تتعلّق برؤيا يوحنا التي رأى فيها وحشاً بحرياً بسبعة رؤوس يخرج إلى اليابسة ويتوجه صوب قبر الرب. تذكرت تفسيرات يواقيم التي ذكرها في إحدى منشوراته البابوية حينما فسّر الوحش بأعداء المسيح، وأن إحدى الرؤوس تمثل نبي العرب الدموي بينما فسر بقية الرؤوس على أنها سلاطين مسلمون كان أحدهم صلاح الدين الأيوبي والآخر عبد المؤمن الموحدي.

بإهمال أو بحزن، أقفلت الكتاب المقدّس وأنا أتذكر ما كان يحكيه لي الجد مانويل - ورائحة أصابع شوكولاته جوز الهند تعبق منه – عن تلك المجازر التي أحدثها المسلمون في أهل إسبانيا في القرن الرابع عشر ومدى الهلع الذي امتلك قلوب البابوية عندما عرفوا نواياهم في الزحف حيث الكرسي البابوي الروماني في إيطاليا. تحدث مانويل كثيراً عن قسوة الأتراك المسلمين وعن نظام الدوشرمة الذي طبّقوه بكل غيظ كأنما كانت هذه الأرض أرضهم وانتزعت منهم في حقبة ما لا نعلمها. عرفت كيف أنني لم أستطع أن أتصالح مع ذلك العربي، بل وتمنيت أني لم أتركه حياً ذلك اليوم.

كيف يجرؤ أن يتكلم عن ديانته، وما تزال يداه ملطختان بدماء الرهبان الذين قتّلوا والراهبات اللواتي تم اغتصابهن في الأديرة وأطفالهن الذين بيعوا في سوق الرقيق؟ وما تزال كلمات الأب ليونارد الخيوسي التي كتبها بمداد من دم إلى البابا نيقولا الخامس ترن في أذني، كان لا يفتأ الجد مانويل يتلوها عليّ عندما سنحت له الفرصة وتركته ابنته "أمي" أن يثرثر معي، قبل أن تنهي حديثنا بنصيحة ماكرة "هيا كاسبر لا ترهق جدك، اذهب إلى غرفتك ودع جدك ينام"

فقدت أمي سبعة أرطال من وزنها بعد رحيل أبيها، وترك الحزن ظله المشؤوم تجاعيد على وجهها الجميل. والتهم الروماتيزوم قدميها بشراهة، فظلت تعرج في مشيتها عرجة لا تناسب وزنها الجديد. هذا إضافةً إلى ما تركه الشقاء الأسري على ملامحها، وقضاء أكثر من خمسة وثلاثين عاماً برفقة سارجينيو أورفل صعب المراس. كان والدي حينها يحاول استثمار مدخراته من عمله في منجم الألماس بعد تفرّغه للعبادة والمهام الكنائسية في مشروع لتربية الخيول، قلت في نفسي "ربما يفلح في تربية الخيول

لم تكن لي خطط مهنية قبل وصولي ماربيا، غير أنني قررت ألا أعود إلى المنزل إلا في المناسبات العائلية إكراماً لأمي التي حزنت كثيراً لقراري هذا. وفي أيامي الأولى في ماربيا أحسست برغبة جارفة إلى العزلة، فاستأجرت شقة من غرفة وردهة صغيرة وحمام ومطبخ، رغم أنني لم أكن بحاجة إليه. وصنعت مكتبة صغيرة من بقايا أخشاب بلوط مهملة، وضعت فيها كتبي التي لم تشمل الكتاب المقدس هذه المرة. لي قناعة لا أعرف منبعها أن التدين لا يشترط وجود دين. يجب أن يحاسب الناس على أعمالهم لا على اتباعهم لدين ما بعينه من عدمه. ماذا لو أن شخصاً ما في جهةٍ ما من الأرض، لم يسمع بالرب يسوع، ولكن سيرته كانت يسوعية بطريقةٍ ما؟ هل يعذبه الرب بالنار؟ ألا يكفي بأن أكون صادقاً لأدخل الجنة؟ أولئك الوثنيون هل يعرفون الله أم لا يعرفونه؟ ما هو الأهم، المعرفة أم العبادة؟ حيّدت علاقتي بالرب فترة بقائي في ماربيا، وشعرت براحة نفسية عالية، لا تتوفر في الغالب إلا على صدر أمي، عندما كنت أرتمي بين أحضانها أشكو إليها من بالغين كانوا

الحياة في ماربيا، رغم السكون النفسي الذي احتواني فيها، لم يكن إلا مجرد حياة روتينية، حياة هادئة حد الضجر. كنت أذهب إلى شواطئ ماربيا التي أغرقها المستثمرون العرب بالمشاريع السياحية والفنادق الفخمة. كنت لا أكره شيئاً غير رائحة الرأسمالية البغيضة التي كنت أشتمها في دخان السيجار الكوبي في يد غليظة، أو رائحة موكيت إيطالي ممتد من رواق ملهىً ليلي إلى الشارع البائس، كان الحرس يمنعون الفقراء أن يطئوه بأحذيتهم المتسخة، قلت "كان لا بد أن ينظفوا الشوارع أولاً!" ثمة أماكن لا يستطيع الفقراء دخولها، ليس لأنهم لا يحملون ثمن ما يقدّم فيها، ولكن لأنه لم يكن يسمح لهم بالدخول إليها أصلاً. كان عليك أن تبيع نصف ممتلكاتك حتى تدخل صالة الإستربتيز أو أن تستغني عن مدخراتك الشهرية مقابل أن تشاهد فتاة عارية ترقص في حلبة يتوسطها عامود نيكلي ماجن اللمعة.

ذلك اليوم تلقيت رسالة قصيرة من والدتي على هاتفي المحمول تقول فيها بأحرف مختصرة: "احضر في عطلة نهاية الأسبوع .. هنالك مفاجأة" لم يكن لدي أدنى تخمين عن ما قد تكون عليه تلك المفاجأة، غير أنني قررت أن أعود إلى أرتكاتا في قطار السبت رغم ازدحامه في مثل هذا اليوم من الأسبوع. لم يكن المنزل يوحي بمفاجأةٍ من أي نوع، فقد كان الجميع اعتياديين ما خلا أمي التي أمسكت بقميصي وسحبتني قبل أن أحيي بقية أفراد الأسرة. أجلستني إلى جوارها، وأبدت اهتماماً وهي تقول "لقد وجدت لك عروساً" لم تكن من عادة النساء الإسبانيات أن يفعلن ذلك، كما لم يكن هذا الموضوع مطروقاً على المستوى الأسري من قبلي. التهمت

أذكر أنني التقيت ساريسيا - التي أكبرها بعامين - في توليدو أثناء رحلتي من أرتكاتا إلى كوينكا ولعبنا سوياً ذات مرة. إضافة إلى قرابة من نوعٍ ما تربط بيننا. ثم أنها اختفت واختفى ذكرها ولم نعد نسمع عنها شيئاً. تبسمت في وجه أمي:

* آنسة كارول مانويل، أنا لا أفكر بالزواج الآن.
- ومن قال بأننا مستعدون الآن لتزويجك، فقط فكّر بها الآن .. إنها تناسبك تماماً
* ومن قال لك أنها تناسبني، إنها مكتنزة وأنا لا أحب المكتنزات.
- أنا أمك وأعرفك أكثر منك.
* أمي .. لا يمكن أن ..
- أيها الأخرق إنك حتى لم تلاحظ استدارة ثديها بعد.

* وهل سيغيّر ذلك من الأمر شيء؟
- أيها القسيس الصغير، لا تكن مثالياً .. هل تراك ستتزوج من فتاةٍ لا تثيرك؟
* كلا ولكن ..
- كلما أثارتك كلما تمتعت بعلاقة جنسية جيدة.
* ثم ... ؟
- العلاقات الجيدة تنتج ذريةً صالحة
* أرى أنك وأبي لم تظفرا بعلاقة جنسية جيدة أبداً !!

أثناء عودتي إلى ماربيا، كنت أحاول تحميض نجاتيف ذكرياتي القديمة مع ساريسيا في توليدو، فبالكاد كنت أتذكرها بين مجموعة ممن مروا على شريط ذاكرتي. لا أذكر عنها غير أنها كانت أول من امتلكت دراجة بعجلتين في حيّنا. بينما كنا جميعاً نزهو بدرجات ذوات أربع عجلات، عجلتان رئيسيتان، وعجلتان صغيرتان تساندان العجلة الخلفية. ولا يأتي ذكر الدراجات إلا وتقفز إلى مخيلتي سابيلا آندروس العمياء - زوجة فرانكو ماتيوس "عديم الذوق" - التي كانت تسكن الطابق العلوي لمنزلنا في أرتكاتا. كنت استغرب الطريقة التي يتم بها حفظ الذكريات واستعادتها مرة أخرى، هل هي أرشفة من نوعٍ ما؟ فلماذا إذاً لا نتذكر كل شيء؟ على أي أساس تتم هذه الأرشفة يا ترى؟ هل هنالك أولويات للأرشفة أم أنها عشوائية؟ لماذا لا أكف أبداً عن طرح هذه الأسئلة المعتوهة؟ قلت لنفسي "ربما أحب ساريسيا بالإيحاء!"

عندما مرّ الصبي بائع الجرائد، وكنت لا أهوى قراءتها، اشتريت جريدة "لانوفا إسبانيا" حتى أتخلص من زحام تلك الأسئلة وأقطع الطريق الطويلة إلى ماربيا. في الحالات النادرة التي أقرأ فيها الجرائد لا أهتم إلا بالصفحتين الأولى والأخيرة، إضافة إلى الكاركتير الذي ينشر في الصفحات الداخلية

لا أدري ما إذا كان القدر أم دعوات أمي من دبّر لمقابلة بمحض الصدفة بيني وبين ساريسيا في إحدى عطل نهاية الأسبوع، في مدينة أكسبو الترفيهية مع أخوتي. كانت أرض المدينة الترفيهية في العام 92 معرضاً للمخترعات التكنولوجية، إلا أن تم بناء المدينة الترفيهية بعد انتهاء المعرض بأمر من محافظ المدينة آنذاك. توقفت عند عربة بائع الآيسكريم عندما ألحت جوليا "أصغر أخوتي الإناث" في طلب آيسكريم بنكهة الفانيليا. تصادف وجود ساريسيا هناك. تعرّفت عليها للوهلة الأولى من عينيها الماكرتين رغم أنها كانت تبدو أكثر رشاقة. إلا أن صورتها كانت قد انطبعت في مخيلتي ولم تفارقها أبداً. اقتبست جراءة أبناء العاصمة، ووجهت إليها تحية مهذبة، ردت عليها بمثلها. عرفتها بنفسي وحاولت تذكيرها، فكانت دهشتي لا توصف عندما عرفت أنها ما تزال تتذكر تفاصيل ذكرياتنا المشتركة، بل وأنها راحت تسرد عليّ أحداثاً لم أتذكرها قط. عرفت منها أنها تقيم مع أمها أنجيفن في شقة مستأجرة، وأنها تعمل في شركة سياحية كبرى. ما شدني إليها أكثر هو كفاحها المناقض للدلال الذي افترضته فيها. كثير من فتيات توليدو احترفن الرقص في الملاهي الليلة في مدريد أو عملن في مهن وضيعة. وقلّة منهن من استطاعت إجادة اللغة الإنكليزية كما فعلت ساريسيا. قررت أنها فتاة مناسبة.

كان شبح كارسيس يلف حول عنقي كأليافه الناعمة، قلت في نفسي "لا بد أنها تزوجت الآن!" أحسست أنني أخونها بطريقةٍ ما. ولكن لم تكن هنالك بارقة أمل في أن أراها مجدداً. القلب لم يكن شاغراً ولكن طوفان ساريسيا

في أرتكاتا، حيث كان من الصعب تخمين الموعد الـذي تكـون فيـه سـاريـسيا متفرغة لمغامرة عاطفية، كانت الأمور بدت أكثر سوءً مـن ذي قبـل، لا سـيما بعد أن أغلقت معظم شركات السياحة العربية أبوابها على إثر حادثة الرسوم الكاريكاتورية التي تناولت نبي العرب. ما ساعد على تجديد دماء العداء غير المعلن بين المسيحيين والمسلمين. كانت المنطقة الأوروبية تغلي بشدة، لا سيما وأن أغلب عائداتها تأتي من صادراتها للبلاد العربية. وبعد المقاطعة الشهيرة لكل منتجات الدول التي ساهمت – ولو بالصمت – في نشر هذه الرسوم، أو الترويج لها، فقد عانت إسبانيا كغيرها من هزّة اقتصادية عنيفة. كما أن انسحاب هذه الشركات قد ساهم سلباً في خمول السياحة. كنت استعجب من كل تلك الضجة التي قام بها المسلمون لنبي مات قبل أكثر من ألف عام. تساءلت "ترى هل هذا حب أم هوس؟" الأمر دفعني لأن أعرف

في تلك الفترة، عانت ساريسيا من بطالة انعكست على سلوكها العاطفي معي، كان ذلك مبرراً لا سيما في بداياته، ولكنه مع مرور بعض الوقت، أصبحت أكثر ضيقاً لا سيما وأنني لم أكن مهيئاً نفسياً لمثل ذلك في مرحلةٍ ما، حيث عانيت في تلك الفترة من تراكم ديون، وأصبت بنوبات متكررة من الإحباط. كانت لي معارك اعتبرها البعض هامشية، غير أنها كانت مفصلية بالنسبة لي. كنت على وشك أن أفقد وظيفتي في شركة تصنيع ألعاب الأطفال. عندما دخلت على رئيسي المباشر وطالبت بزيادة أجري ورفقائي في العمل. كنت مجرّد مراقب إنتاج، ورغم بُعد ذلك عن تخصصي الأكاديمي إلا أنني لم أجد بديلاً أفضل منه. كان الأمر بالنسبة لي كدوامة هوائية تنقلني تدريجياً من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وما كانت محاولات للخلاص إلا عبثاً وهدراً للوقت. قلت "العمّال هم أكثر إخلاصاً في العمل من صاحب العمل، فهم يحضرون إلى المصنع منذ السادسة والنصف تماماً، وتوضع لهم آلة لمراقبة الزمن ورغم ذلك لم تسجّل هذه الآلة اللعينة أي حالات غياب لأحدهم، بينما صاحب العمل لا يأتي إلا في العاشرة ، ويلقي أوامره ونواهيه على مسامعنا ويشرب فنجان قهوته البرازيلية ويتابع نشرة أخبار السي أن أن على تليفزيونه البلازما المسطّح، ويجري مكالمات هاتفية

كنت أتساءل "ما هو دور الرب في مثل هذه المواقف؟" ودون أن أعتمد عليه كثيراً، كنت أحاول جاهداً للخروج من مأزقي مستفزاً عاطفة ساريسيا نحوي، ولكن كل منا كان بحاجة لمن يتكئ عليه. مرت سنة وأنا وساريسيا ننعم بعلاقة من ذلك النوع الذي تبذل فيه كل ما تستطيع من تحمّل، ورغم المناكفات أو المشاحنات التي تنقطع بيننا في كل مرة، إلا أنني حاولت بقدر ما أستطيع أن أخلص لها كما تفعل، ونجحت حتى ذلك اليوم الذي تلقيت فيه اتصالاً من بيلي غارسيا أحد رفقاء الجامعة القلائل الذين تواصلت معهم بعد تخرّجي أخبرني فيها ضمن مجموعة من الأخبار السارة عن وجود كارسيس وزوجها في أرتكاتا.

فكرت أنه خبر يفيد في توطيد علاقتي بساريسيا، غير أنه لم يكن كذلك. كان الرب يوعز إليّ بخيانةٍ إحداهما. لم أحب فتاة بعمق بقدر ما أحببت كارسيس، ولكنها تزوجت. قلت "هل يغيّر ذلك من الأمر شيء؟" لقد أحببتها حتى دون أن تعلم هي بذلك. الحب لا يشترط انتظار مقابل، هي عاطفة متدفقة لشخصٍ ما، لسببٍ ما يكون الحظ حليفك إن وافقت قبوله، وإلا فلا شيء يمنعك من محبته. متى كان الزواج أمارة للحب، الزواج كثلاجة الموتى، يحافظ فيها على الجثث التي لا حياة فيها. أحببت كارسيس لأنها رقيقة ووادعة وجميلة وتملك من الصدق ما يكفي لأن تجعلك إنساناً صادقاً. ما يجب أن يدفعني للتوقف عن محبتها هي أن تنتفي هذه الصفات. ساريسيا جذابة ومكافحة وتستحق الاحترام. كما أنه لا ذنب لها بتاريخي

في أول اتصال هاتفي لي مع كارسيس، شممت عبق السنوات الخمس التي قضيتها في مدريد، وتذكرت ملامح أشخاص لم أتوقع أن أتذكرهم يوماً. وما زالت كارسيس محتفظة بصوتها الملائكي الناعم :

* من على الخط؟
- صديق قديم
* من مدريد؟
- ربما .. هل تتوقعين شخصاً بعينه؟
* في الحقيقة أتمنى أن تكون كاسبر سارجينيو
- ولم ؟
* فقط هو الوحيد الذي انقطعت أخباره منذ 98

كان مذاق هذه المكالمة مختلفاً. حاولت فيها المستطاع أن أبقى على الحياد. كنت أعلم أنها تكن لي احتراماً من نوعٍ ما، ولم أشأ أن أخون ذلك الإحساس بتصرفٍ أرعن. في ذات الوقت، كانت خلافاتي مع ساريسيا قد بلغت حد انعدام الثقة بيننا. لا سيما وأنها توقعت أن أكون يسوعياً مخلصاً. ضعفت أمام جبروت الرأسمالية التي كانت تسحقنا بأيدٍ غليظة. وهنتُ، عندما هانت كل القيم التي حلمت بتحققها في بلدٍ ارتمت في أحضان الرأسمالية بكل قوة. ثم كان سقوطي الأخير، عندما حنيت رأسي للمرة الأولى أمام حوجتي للمال. بصقت على نفسي كثيراً في المرآة، حتى أنني في ليلةِ نحس كسرتها بمطفئة تبغ خزفية. لم أستطع أن أحكم ما إذا كان ظهور كارسيس مجدداً سبباً في عدم احتمالي لمناكفات ساريسيا المتكررة. أم أنه اليأس والقهر الذي كنت أعانيه. وفي أول فرصة قررت إنهاء علاقتي بها دون ندم. ما آلمني أكثر هو مصارحة كارسيس لي بالمحبة بعد

وشارع الغرنادة

وقصر الشوق وأصوات باعة البائية المتجولين في حي الموريريا، وجلسات العشبة المخدرة في حقول البابيو والمورة. أصبحت علاقتي بكارسيس أكثر إلاماً بعد تصريحها الأخير. حاولت أن أحذر ولكنها، أخذتني من يدي كطفلٍ صغير، وخطت بي أولى خطواتي نحو عشقٍ من نوع آخر. عشق من النوع الذي لا يحتمل نهايات منطقية أبداً. كنت أشعر معها وكأنني لم أعشق أنثى من قبل، وكانت تنسى أسرتها الصغيرة عندما كنت أكلمها خلسة دون أن يعرف زوجها بذلك. لم أشأ أن أضيع مرة أخرى رغم أنني عرفت منذ البداية أنني قد ضعت فعلاً. وفكرت ذات يوم فيمن أكون، وذهلت للنتيجة التي توصلت إليها، فلم أجد نفسي سوى خاسر متبجح، فقد خسرت ساريسيا وكارسيس ووالدي ونفسي قبل كل ذلك. ولم أزل أبحث بين الكتب المقدسة عن إجابات لأسئلتي المهرطقة. عرفت عندها أنه يجب عليّ أن أبحث عنها في مكانٍ آخر.

ساريسيا الآن في مكانٍ ما، ربما تشعر برضىً أكثر مما لو أنها استمرت معي، وربما تزوجت برجلٍ يتمتع بالموهبة اليسوعية التي كانت تنشدها في فتى أحلامها، لا أحمل لها أي ضغينة الآن. ولكن فقط وددت أن لو عرفتني كما أنا، فأنا مختلف بطريقةٍ ما. وكارسيس مع زوجها وأطفالها، حتى وإن لم تكن سعيدة. ربما لم تشعر بعدم السعادة تلك إلا عندما ظهرت مجدداً في حياتها، يبدو أنه لم يكن يتوجب عليّ أن أفعل. ابتسمت في بلاهة وأنا أخمّن سخرية الأقدار. وأنا هنا في ماربيا أعيش في شقة من غرفة وردهة صغيرة وحمام ومطبخ لا أستخدمه. عرفت أن هذا العالم، يسير بطريقةٍ منطقية غير مرضية، وأننا كقطع الشطرنج تحركنا يد ماهرة يهمها النتيجة وليس التفاصيل. ما نحن إلا تفاصيل هامشية على رقعة الشطرنج. بدّلت ملابسي ونمت، وغالباً ما أنام بسروالٍ داخلي فقط، وقبل أن أنام كتبت بخط واضح جداً على ورقة صفراء "كارسيس .. لقد أتيتِ متأخرة" وعلّقتها على خزانة الملابس، ربما تراها يوماً ما بعد موتي.

الهوامش:

(1) صرح مخصص للحج إلى السيدة مريم العذراء أنشأ في عام 1858م

(2)

(3) التوتم هو في الغالب حيوان أو نبات يوجد اعتقاد جازم لدى القبائل البدائية أنها من نسله. والتوتمية نظام أسري للقبائل البدائية، يعتقد أنها كانت البذرة الأولى لتحريم الزواج من المحارم. إذ يحرّم النظام التوتمي لقبيلة توتمية معينة الزواج من نفس قبيلة التوتم.

(4) الديماغوجية: هي القدرة على كسب ثقة الآخرين عبر التأثير عليهم بالخطاب العاطفي.

(5) الأحمسا: أو مذهب اللاعنف وهو مذهب يدعوا إلى مواجهة الكره بالمحبة وبالمحبة فقط. ويعتبر الماهاتما غاندي مؤسس هذا المذهب المثالي.
(6) سيجموند فرويد: عالم نفس ألماني هو صاحب مدرسة التحليل النفسي
(7) كاهيتي: مانويل كاهيتي شاعر إسباني صاحب قصيدة "الكلمة الزرقاء للأيام"
(8) لوركا: فريدريكو غارسيا لوركا شاعر ورسام إسباني مجيد صاحب قصيدة "غزالة الموت المظلم"
(9) أوتيرو: بلاس دي أوتيرو صاحب قصيدة "في قشتالة" المشهورة
(10) ثيلايا: غابرييل ثيلايا
(11) هو طقس يقام في الكنيسة لتسمية المواليد الجدد.
(12) تخاطري من أي التخاطر، وهو قسم من علم الميتافيزيقا أو "ما وراء الطبيعة" يدرس الحالات الشعورية المرتبطة بموجات العقل وإمكانية إنشاء نوع من الاتصال من خلال هذه الموجات.
(13) محطة قطار العاصمة الإسبانية
(14) ساحة في مدريد القديمة تعتبر من أهم المعالم السياحية في المدينة.
(15) تقول نبوءة الأب يواقيم الفلوري وتابعه أرنو أن بطلاً مسيحياً سيخرج من إسبانيا ليحررها من المسلمين ويعيد مجد المسيحية ويعيد بناء قبر الرب في جبل صهيون.
(16) هنالك عشر مدن في إسبانيا تحمل اسم مدريد غير مدريد العاصمة